مائة عشيقة

الكتاب: مائة عشيقة

رواية

هانم داوود

الطبعة الأولى 2019

رقم الإيداع: 2018/26222

الترقيم الدولي: 978-977-6667-97-6

الناشر: السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام: لمياء السعيد

36 شارع عبد الحميد الديب بجوار شركة
القاهرة للأدوية شبرا مصر برج الهادي.

0222017260
01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

هانم داوود

مائة عشيقة

روايـة

مئة عشيقة

حين أراك يدق قلبي طرباً، وتتراقص الجبال والأشجار، وتعزف الطيور على دقات قلبي العاشق أعذب الألحان، ويهمس قلبي لعينيك أجمل كلمات الحب والغرام، يخالجني الرعب والفزع حين أمسك عيني وهي تلتهم قوامك وملامحك وعينيك الجريئة، أخشى من ظنونك نحوي واتهامك لي بالعبث والفجور، تلمع النجوم لهمسات قلبي القلق في انتظار طلتك البهية، وقد تسارعت دقات قلبي، وتحول القلب المتيم في لحظة إلى ساعة أنيقة عصرية تعدُّ دقاته كل ثانية في غيابك ،وتوقظ في نفسي ما يكمن فيها من رغبات العشق، وتحول القلق إلى صباح أنيق، ذي سماء صافية ونسائم رطبة، و سرور وزهور تفوح منها رائحة العبير. هو حلم شاب تجاوز العشرين من عمرة، وفتاة لم تجاوزه، وحياه تتألق نشوة وسعادة.

عقل مجنون وقلب عاشق؛ يحمل الحبيب أينما ذهب ما حيي ولا يدعه، ولا ينساه أبداً، وليس كمن يحمل الحب والهوى والغرام بضعة أيام ثم يسقطه في بداية الطريق، قلوب عامرة بالحب

والإيمان، تمنح الجمال لكل من حولها، وقلوب انطفأ إيمانها بالله؛ ترشّ بذور الشر على من حولها، وتعكر صفو الحياة، وتشوّه منظرها ومظهرها، وتنتهي متألمة.

هانم داود

إهداء

أرجو أن يبزغ ضوء النهار على كل قلب عاشق؛ تتعطش روحه للغرام، وعلى كل من خفق قلبه حين اجتاحته أعاصير الحب على الرغم من مرّ الحياة المثقلة بأرق الأيام، فهو كحر شمس صيف لا يطاق، يلطف الحب أوقاته مثل الهواء يلاحقك في كل مكان مهما صددته، فيظل ملازماً لك حين تغلق النوافذ والأبواب في وجه، هل كل نظرة متوهجة من عين عاشقة لعوب مغرورة بشكلها وقدرتها على إغواء الرجال، تذل قلب إنسان، وتلقي به في غياهب الضياع والأحزان، كعاصفة قوية تقتلع الأشجار من جذورها، وتبتزّ المال والصحة، وتهدر الوقت؟ هل حب المال والسطوة يغنيك عن الحب؟

هنا في هذه الرواية مئة عشيقة مزج الواقع بالخيال، والخرافة بالحقيقة.

مقدمة

يحسّ بنسمات رجولته تداعب وجنتيه في أحضانها العاشقة، ويلتهم مشاعره جسدها المثير، يا لها من أحاسيس ومشاعر تألقت فيها شهوة العشق الجارف، وعذب الحديث، ورقة المشاعر، والخبز في قلب الحياة، يظن كل منهما وكأنه قد أمسك نجم الحياة في يده بعد أن كاد أن يفلّ منه، هي امرأة تشعره برجولته ووجوده، فهو كملك غزاها بهيلمان المال، تزيح عن كاهله أعباء الحياة، فهي كألف جارية مطيعة له، ويبحث عن غيرها حين يمل من غنائها، ولا يرى من جديد معها. يحاول إشباع غروره الذاتي، ورغبة جنسية متوحشة حتى لا تكون مثل قمر يختفي خلف غيوم سوداء...

(١)

تحرش

في سنة١٩٥٢ في قرية البيضا في كفر الدوار، كانت ثريّا الفتاه الفقيرة، شابة ريفية في العشرين من عمرها، تسرع الخطا باتجاه الترعة لتغسل الأواني، وقد امتازت بجمال ساحر الجمال، وقدّ مياس جميل، وضفائر شعر ممدوج تتمايل على ظهرها كغصن شجرة تداعبه الريح برقة، كانت تخبئه تحت طرحة كنارية اللون، مظهرة منه بعضاً من خصلات الشعر التي تتدلي على جبينها، ترتدي جلباباً مجسّماً لجسدها فضفاضاً من الأسفل، وحذاء بلاستيكياً مخصصاً للرجال ولا يناسب مقاس قدميها، ولكنها كانت تتمتع بكرامة وعنفوان شامخ كشموخ قمم الجبال التي تخترق السحاب، وينبت مع اتزان حديثها الصنوبر، وتشرق عند إطلالتها شموس الجمال في فصل الخريف الرقيق، الذي لم تتلبد سماؤه بعد بالغيوم، وتنتشر رائحه لوز القطن في الأجواء، يعترض طريقها شخص ثقيل الروح والدم على قلبها (مطر)، الذي كان يبلغ من العمر أربعين سنة، عريض المنكبين، طويل القامة، متسع العينين بجرأة ووقاحة،

كان يعمل ناظراً في أرض العمدة، ويرتدي جلباباً أبيضَ صنع من الحرير، وكان يبغض نسيم بيك لكره العمدة له وغيرته منه. أحب العمدة أشرقت زوج نسيم بيك، ولكن السيدة أشرقت فضلّت نسيماً؛ لأنها كانت تحبه منذ أن وقعت عيناها عليه، ويرافق مطر دائماً رجل في الأربعين، وهو صديق طفولته، ويظن من يراه أنه تعدى الثمانين من عمرة، أحمر العينين لكثرة التدخين والسعال، منتفخ أسفل جفنيه، لا يخرج من عينيه إلا الإجرام، فهو لا يحب الخير للناس، قليل الصلاة، ولا يتقرّب من الله، وغير مهتمّ بنظافته، و قد لفّ رأسه بتلفيعة ضخمة، قد لفها فوق رأسه عدة مرات، متسخ الجلباب والأقدام داخل حذاء ممتلئ بالتراب، مظهره يدل على أنه لم يغسل وجه منذ أيام عدة. كان المكان مليئاً برائحة المعسل والفحم التي تصدر من مقهى قريب، ونسائم هواء الخريف الرطبة تداعب جلباب ثريا، التي تمشي ناظرة أمامها دون أن يشغلها ما يجري حولها كثيراً،

-ابتعد عن طريقي أنا إنسانة لديها كرامة، لا أسرق ولا أعمل ما يغضب الله مثلك، أتريدني أن أفعل الفاحشة؟ لقد تعبت وأنت تحاول معي جاهداً دون جدوى، ولن تصل إلى مبتغاك إلا عن طريق الحلال، وأنا لا أريد الزواج منك.

قال مطر وقد تراقص أمام عينيه شبابها الجذاب وسحر وأنوثتها الطاغي:

-وأنا أقدر الجمال ومن جنيه إلى مئة جنيه يا حلوة يا أم العيون الساحرة.

-لا..اسكت حرام، وأنا أحبّ أن أصون كرامتي، وألا أرى في أعين الناس الاستهتار بي، أنا أمشي في الطريق الصحيح، والله يراني.

فقال وهو يتنهد مغرماً بندى زهورها:

-مصيرك أن تلين يا جميل.

كانت ثريا ترى (مطر) ذا قلب غليظ قاسٍ كحجر الرحى-أنا نجمة في السماء عالية ولن تطالها يد إنسان إلا في الحلال، وأنا في الآخر سأصرخ وأجمع عليك الناس ومن في هذا البلد كلهم من شرقه لغربه.

فقال مطر بغطرسة وتكبّر:

-بضعة أناس أضعف من الضعف عينه، أسحبهم وأجرهم جرّاً إلى دوّار العمدة ليتكلموا، لكنهم مثل البهائم، غير أنها تنطق وهم لا يستطيعون أن ينطقوا بكلمة أو يلفظوا بحرف، يملأ الخوف والفزع أعينهم من حضرة العمدة فليس بمقدور أي منهم أن يلتفت لمن يقف بجانبه، وإن عضّه ثعبان. وإذا كنت شريفة كما تقولين فلماذا تمرين أمام المقهى؟ ابحثي عن طريق آخر.

-حقاً، إنها غلطتي لكنني وجدته أسرع الطرق، فلتستحي من الله ولتبتعد عن طريقي، أرجو من الله أن يعمي عينيك عن الحرام، وألا ترى إلا ما يرضيه أنت والعمدة.

قال سطيف:

- عندما توافقين على الزواج من حضرتي، تأكلين اللحم والسمك،

وتجعلين ابنك يعيش حياة هنيئة، ويلبس الملابس القيّمة الغالية، وتعيشين مبسوطة مرتاحة البال، ولا تشقين في العمل في الأراضي أو في خدمة البيوت.

-بعد الشر عن ابني من أكل الحرام يا ديوث يا ضلالي، أنت والعمدة تنهبون البلد وتقتلون وتجرمون في الأرض.

فقال مطر باستهتار:

-الحياة تحت جناحي، أحسن لك من أكل البصل الناشف والمش زمانه حرق قلب ابنك.

قالت ثريا بتعالٍ وشموخ:

-اللقمة الحلال تمري بصحة على جسم ابني، ويمشي رافع الرأس بين الناس، ولا أرميه أبداً في العار، ولا أحد يضمن متى ينتهي عمرة، ومتى سيأكله الدود في القبر، خافوا من ربنا.

فقال مطر بعد أن كان مزهواً وسعيداً:

-تعالي يا بنت امشي على دوّار العمدة، أنت سرقت حلة نحاسية من السيدة اعتدال زوج العمدة.

أخذت ثريا تنادي الناس بصوت عالٍ وحزين وغاضب وخائف، يحاول منعها من الصراخ والغضب، ويمسك بذراعها بعنف، ويجذبها آخر- وهو من أصحاب الزور والبهتان وقليلي النخوة الموالين لمطر - من كتفها.

-يا ناس يا خلق ولا فيه إنسان شهم؟!

.اجتمع بعض الناس حولهما وقالوا:

-خيراً إن شاء الله، اتركها لشأنها يا مطر، ما هو عملك؟ نريد أن نفهم، لن نسمح لك أن تأخذ سيدة تحلّ لك بحجة أنها عملت ما هو خطأ؛ سواء أكان سرقة أم شيئاً آخر.

فقال مطر بضعف:

-سرقت زوج العمدة.

.فقال الناس بشهامة:

- نحن نعلم أنها لم تذهب لاعتدال سابقاً، وأنها محترمة، وتعمل من أجلها وطفلها اليتيم، حرام عليك ظلم الناس، ستضيع صحتك في يوم من الأيام، وستمشي عليلاً، تتمنى كلمة عطف من أحد.

أجابت ثريا:

-أمثاله مثل العنكبوت تعيش في سقف البيت لكنها بلا قيمة، لأنك تستطيع ضربها بالحذاء فتموت.

قال مطر:

-صوتك مقطوع مثل صوت القش على السطح عندما يداس بالأقدام.

...بينما كانت ثريا تمشي مسرعة تجفف الدموع المنسكبة من عينيها بطرحتها، وتحمل فوق رأسها الأواني النحاسية لغسلها في الترعة، كان نسيم بيك يرتدي قميصاً أبيض، وبنطالاً رمادياً،

وحـذاء جلديـاً مخططـاً باللونـين الأبيـض والرمـادي، ويسـتقل سـيارة بنتـليR كونتيننتـال١٩٥٢، في طريقـه لمقابلـة أحـد أصدقائـه، وهـو في الخامسـة والثلاثـين مـن العمـر، معتـدل القـوام، حسـن الملامـح، ذو ابتسـامة مشرقـة، نسـيم بيـك ذو وجـه بشـوش، لم ينـهِ دراسـته الجامعيـة في كليـة الحقـوق، حيـث كان يـدرس في القاهـرة، ويقيـم في شـقه تمتلكهـا الأسرة في (حـي المنيل)،وبينـما هـو شـارد في راقصـة يونانيـة تعمـل في إحـدى الملاهـي في القاهـرة، وهـي مـن الذيـن ضمتهـم قائمـة النسـاء اللـواتي تعـرف عليهـن أثنـاء دراسـته الجامعيـة، ولقـد ورث وأخوتـه مـن والـده أرضـاً زراعيـةً كبـيرة مسـاحتها مئـات الفدادين، ويعمـل عنـده ناظـراً لـلأرض المتـولي فرحـان، البالـغ مـن العمـر خمسـين سـنة، والـذي فشـل لمـرات عـدة في الثانويـة عامـة، ولديـه أسرة وبنـات متزوجـات.

وقعـت ثريـا أمـام سـيارته، فالتـوت قدمهـا، وأسـقطت الأواني التـي تضعهـا فـوق رأسـها، حيـث كانـت تريـد أن تغسـلها في الترعـة.

نزل نسيم بيك من سيارته والقلق بادٍ على وجه.

فقال نسيم بيك بنظرات متعاطفة:

-ماذا حدث لك هل أصبت؟

-ابتعـد عنـي أنـت وأمثالـك تأخـذون الدنيـا طـولاً وعرضـاً ولا يمـلأ أعينكـم أحـد، لكـن الله مـع المنكسريـن.

-أنـت المخطئـة، مـررت مـن أمـام السـيارة مسرعـة، التفتـت ناحيتـه وهـي تمسـك قدمهـا مـن الألم.

-عجيبة

-تعالي أعطيني يدك، تعالي لأسندك، وأذهب بك إلى المستشفى.

قالت ثريا بعد أن كانت مثل أمواج البحر وهي تضرب بعنف صخور الشاطئ، ثم تتراجع برقة:

-مستشفى؟!! لا...لي جارة عجوز لابد من الذهاب إليها، أحضر لها ما تريده من خضار أو ماء للشرب، و أغسل لها زجاجه مصباحها لأنها مريضة مسكينة.

ثم نظرت إليه نظرة إعجاب قائلة:

-أنا فداؤك، المهم أنك بخير.

أجاب بابتسامته الساحرة الجذابة ومن ورائه الأشجار والنخيل:

-ليت رقبتي هي التي كسرت، عليك الانتظار على حافة الطريق، فأنت مثل جدول ماء يمرُّ مسرعاً في طريقه بين الزهور، ومن الممكن أن تعكر صفوه عيني وحش خبيث أو حيوان شرير عطش.

قالت ثريا وقلبها يقفز من بين ضلوعها فرحاً:

-أهذا الكلام من قلبك؟!!!!

-كان من المحتمل أن تموتي يا متهوّرة، أنت فراشة ترقص بين الزهور ونسمة محملة بأحلى العطور.

-أنت نسيم بيك؟؟

-نعم أنا، هذه المرة الأولي التي أراك بها يا بنفسجة عطشى ويا يمامة متمردة.

-أريد العمل في منزلك، لدي طفل يتيم، ومن الصعب إهانته في العمل هنا أو هنا، أعمل وأتحمل الشقاء من أجل ولدي.

-تعالي لتعملي في الأرض مع البنات والنساء الأخريات، واتجه نسيم بيك نحو سيارته، فجرت وراءه وهي تحجل بقدميها.

-لم يسبق لي العمل في الحقول.

وعلى الرغم من أنه لم يلتفت إليها وهي تحدثه، إلا أن رغبة عارمة داهمته وقتها عند سماع صوتها ، لكنه لا يعلم ماذا يريد، فحك جبينه محدقاً في الفراغ وراودته فكرة، فقال وهو يفتح باب سيارته:

-اذهبي للعمل في البيت كما تحدد لك سيدتك أم فارس.

-سأطير إلى بيتك يا نسيم بيك.

-الطيبة بين عينيك، وأنت حسن الوجه والخلق، جميل الهيئة والثياب.

ابتسم نسيم بيك مستغرباً ثم قال:

- الكل للتراب

-ربنا يمدُّ في عمرك.

...حاول نسيم بيك أن يصل إلى ثريّا في الحلال، ويذهب نصبة للشاي يمتلكها خالها خليل، والنصبة عبارة عن الخوص

والجريد على شط الترعة، ويجلس بين الأفاقين والمجرمين والحرامية والبسطاء الشرفاء.

قالت ثريا أمام خالها:

-نتزوج على سنة الله ورسوله فيكون زواجنا علنياً أمام الناس كلهم.

أجاب نسيم بيك بكلمات رقيقة كرقة قطرات مطر الخريف:

-كلامك مستحيل، أما كرامتك فسأصونها لك.

-تصونها؟؟؟!!!!سيقول الناس إنك تعرفني سراً، وهذا منتهى الإهانة والاستهتار بي.

-الإهانة تكون عندما أنكر أني زوجك، أو أن أسمح لأحد أن يتكلم عنك بسوء، والحرام هو أن أنكر أنك زوجتي حين يسألني أحد عنك، لأن الزواج سيكون في هذه الحالة أشبه بالزنا وأنا أخاف الله، واطمئني سيحضر الشهود ويشهدون عقد قراننا العرفي، وسأحفظ لك حقك إن شاء الله.

قال خالها:

- يكفي يا ثريا، نحن نعرف بزواجك، وهل يستطيع أحد أن يكتم سرّاً في هذا البلد؟

...في منزل ثريا، تجلس ثريا على مقعد خشبي، وتجلس أختها ورد بجوارها على كيس معبأ بالتبن ومطروح على الأرض، حيث قامت بفتح الكيس وضغط التبن داخله.

-لا أستطيع الجلوس، أنت يا ثريا تجيدين فن الطهي، فما رأيك بفتح عشة صغيرة نبيع فيها المهلبية والبليلة؟ وسأشاركك العمل، وسنوسع تجارتنا على مرور الأيام، أو ما رأيك أن تعملي في معمل الصوف (التريكو)؟ صحيح أنك تعيشين وطفلك عماد ابن التسع سنوات في منزل من الطوب اللبن، بعد أن توفي والده الذي أصيب أثناء ري أرض العمدة بسير المجموعة، ونقل إلى المستشفى ومات (الله يرحمه).

أجابت ثريا وهي تستند إلى الجدار وتضبط غطاء رأسها:

-العمدة؟؟!! لم يعطني أي مبلغ من المال، ولما فكر في إعطائي أراد جسدي مقابلاً لذلك، وحياتي بلا مال ولا مساعدة من أي أحد، لابد من العمل، ولكنني لا أستطيع فتح مقهى أو مطعم لأنه يحتاج لمال كثير.

فكرت ورد وهي تقلب الشاي الموضوع أمامها ثم قالت:

- لابد لك من عمل لتتمكني من الخبز، عندما تتزوجين من أي شخص - نسيم أو غيره - فعندما يكون الزواج سرّاً فستعودين لبيتك، فمصيرك في ذلك الوقت سيكون كطائر يعود إلى عشه مهما ابتعد عنه، وستظلين أسيرة عنده طيلة أيام سحرك وشبابك، ولن ينفق عليك كما يجب، وستظلين كعصفور في قفص يمدك بما يحب وليس بما تحبين، ومن المحتمل أن يهجرك في أي لحظة، أو أن يموت، وعندها سيبقى ماله لترثه زوجته وأولاده.

-أراك قد بعت حلق ذهب في الأيام الماضية لتتمكني من الإنفاق علينا، و هذا مستحيل!!

لابد أكون حرة مع نفسي حتى لا أتعرض لهذه التجربة مرة أخرى، وطبعاً من المستحيل أن أبيع نفسي للرجال، فمطر دائم التعرض لي وسيدبر لي المكائد.

أما البيت فكنت أتأمل أن أبنيه، ألا ترين أنه مليء بالحشرات، وأن السقف يمطر علينا؟؟

-إن كان نسيم يريد الزواج منك زواجاً عرفياً، فعليك أن تأخذي منه مهراً وحلياً ذهبياً.

-أنا أرملة، لا حقوق لي.

- لك حقوقك، لا ترخصي نفسك من أجل ألا ترخصي في أعين الناس، والمهر والحلي ستبنين بهم أساس البيت كالطوب الأحمر والرمل والإسمنت، وستدفعين أجرة البناء والعمال.

-وبعد ذلك يا ورد.

-تجمعين من الناس لله، بل سأجمع لك، أنت تربين طفلاً يتيماً، وهو ابن تسع سنوات، وتحتاجين لبناء بيت يحميك من المطر والحشرات، وزواجك من أي شخص زواجاً علنياً سيكون أفضل وأحسن لك ولابنك، حيث تستقرين في حياتك وتنجبين، وأنت تعرفين عمل الإبرة فحسني دخلك من التطريز للبنات والنساء.

-سأتزوج سراً من نسيم و سيدبر الله لنا أمورنا.

جاء عماد من درس تحفيظ القرآن يحمل في يده جزءاً من القرآن الكريم، يرتدي جلباباً سماوياً، فوضعت له طبقاً من المهلبية، واقتربت منه قطة بيضاء أخذ يمرر يده بلطف على ظهرها.

قالت ورد:

-قم، واغسل يديك بالصابون، فشعر القطط يؤدي إلى مرض السل.

***

(٢)

جرائم في وضح النهار

الحياة في عيون البعض أجمل من بهاء الشمس، وأبهى من جمال العروس، والرضا والسرور عن ما هم فيه، فبعض الناس يعيشون بفرح وسعادة وهناء على الرغم من حياتهم البسيطة، ويغلقون الأبواب على أسرارهم وإن كانت سماء حياتهم ملبدة بالفقر والحاجة، والبعض الآخر لا تنعم قلوبهم بالراحة على الرغم من كثرة مالهم، فحياتهم مفعمة بالإثارة والحكايات التي تضع القلب في حيرة وعذاب، فدموعهم كنار تحرق الوجوه باستمرار، يتساءلون هل ستطلع شمس يوم جديد، تبعث في النّفوس الأمل والتفاؤل؟

أذان الفجر، سنة ١٩٥٦ شهر أكتوبر في البيت الكبير في قرية البيضا في كفر الدوار، مع ضوء الصباح الخافت والنسائم العليلة، حيث لا ترى شيئاً أمامك فمازالت عتمة الليل تحضن الضباب، كان النشاط والعمل يدب في دوّار (نسيم بيك)، فهناك من يغمر اليابسة بالمياه، فكلُّ شخص في الدوّار يعلم ما المطلوب طيلة النهار، ناهيك عن

صياح الديكة وخوار البقر من حين لآخر. جمعة شاب طويل القامة، نحيل الجسد، ذو وجه أسمر رقيق -وكأنه يشكو من علّة ما لكثرة أرقه وحزنه- وتبدو عليه علامات الكسل؛ فهو سيئ المزاج، شارد الذهن، يحلم بالعودة سالماً إلى أهله في الصعيد، إلا أنه يخشى أن يقتل جراء ثأر بين عائلته وعائلة أخرى، حيث يقوم جمعة من أول النهار بوضع حليب المواشي في أوانٍ فخارية كبيرة، وقد تعلق بحذائه البلاستيكي الأسود الطويل للركبة روث البهائم، ويرتدي بنطالاً قديماً أزرق -قد تغير لونه لكثرة البقع والأوساخ، وأدخل أرجله داخل الحذاء - كان قد أعطاه إياه السيد (نسيم)، وأحد قمصان (نسيم)القديمة التي طالتها يد الإهمال، وذلك لضرورات العمل في حظيرة المواشي، وما يتضمنه هذا النوع من العمل من كنس وتقديم العلف للماشية، ويلف رأسه بتلفيعة زرقاء صيفاً وشتاء، يظهر منها شعره المبعثر، يقوم بعمله على أكمل وجه على الرغم من أنه يبدو للناظرين كثير الشرود، وكأنه لا يرى أحداً أمامه، فقليلاً ما يحدّث أحداً، أو يبتسم لمن حوله، فلا تسمع منه إلا وقع صوت حذائه على الأرض، وقذف كرة مصنوعة من الجوارب الممزقة تقع في الدوّار ليلعب بها أطفال الجيران في الشارع، الذين لم يدفع بهم آباؤهم للعمل في الحقول.

قالت ثريا له:

-لأنك تعرف أنها كرة أولاد عبد الله صاحب الأطيان، ترمى

لهـم بهـا، ولـو عرفـت أنهـا لعبـة ابـن ثريـا الضعيفـة لكنـت حيرتـه وحـيرت دمعتـه عـلى خـده.

قال جمعة، وهو يربط حبل البقرة بعربة يجرها حمار:

-يا صباح الخير الذي كوجهك، والله لا أعرف لمن هذه الكرة.

.ثمّ التفت ينادي لفتح الله.

قالـت ثريـا مبتسـمة، وهـي تقـوم بعـصر الثيـاب في طبـق مـن النحـاس الكبـير:

- الصباح خير إن شاء الله (طالما زي وشي يبقى صباح عسل)

قـال جمعـة مسـتهزئاً، وهـو يمسـك بيـده حبـل البقـرة متجهـاً بهـا نحـو حـوض البهائـم لتـشرب:

- تقصدين العسـل الأسـود؟ وبدعـاء هنيـة الطيبـة فهـو صبـاح خـير وهناء.

وكان الـدوّار مليئـاً بـروث البهائـم ومخلفـات الدواجـن، ويعلـو صهيـل الخيـل وأصـوات الماشـية والأغنـام والحمـير التـي تنهـق أثنـاء سـيرها مـع أصحابهـا المتجهـين بهـا إلى الحقـول.

وتقـوم (ثريـا) الجميلـة المليئـة بالأنوثـة والتـي تبلـغ الثلاثـين مـن عمرهـا، بالعمـل في بيـت (نسـيم)؛ حيـث تقـوم بنـشر الملابـس لتجـف عـلى حبـل الغسـيل المجـاور لغرفـة الفـرن ،ثـم تدخـل الغرفـة وتطفـئ بابـور الـكاز، تلـك القطعـة النحاسـية التـي تتربـع عـلى أرجـل ثـلاث، حيـث يوضـع عليـه إنـاء كبـير نحـاسي تغـلي فيـه الملابـس البيضـاء

بالصابـون الأبيـض والمسـحوق، وتفـرغ ميـاه طبـق الغسـيل في إنـاء نحـاسي ضخـم، وبجانبهـا الغرفـة المخصصـة لعمـل القشـدة والجبـن، والغرفـة المخصصـة لغسـل الملابـس حيـث تجلـس والـدة (سـماح) وهـي سـيدة مسـنّة نحيلـة الجسـد، تقـوم بعمـل الجبـن في الحصـيرة ،في غرفـة عمـل القشـدة، فتقـول لهـا:

-يـا أم سـماح أحـب أن أعـرف منـك سرّ الطعـم الحلـو الـذي يصـدر عـن الجبـن والقشـدة اللذيـن تصنعيهما.

-ليـس سرّاً يـا بنيتـي تعلمـي عملهـا وتـوكلي عـلى الله، ثـمّ اصنعيهـا بقلـب قـوي.

وتجلـس بجوارهـا السـيدة المسـنة هنيـة، وتقـوم بغسـل زجـاج مصابيـح الـكاز بالقـش والمـاء، وترصّهـا عـلى مقعـد خشـبي لتجـف، حيـث تسـقط عليهـا أشـعه الشـمس مـن النافـذة المجـاورة للمقعـد، وتصعـد ثريـا السـلم الخشـبي لتنـشر الغسـيل عـلى القـش الموضـوع عـلى سـطح غرفـة الفـرن وغرفـة الطيـور؛ وهـي عبـارة عـن مجموعـة مـن علـب الصفيـح المعلقـة عـلى سـقف غرفـة الفـرن، حيـث يرقـد فيهـا الحـمام بأمـان، وتقـول نعيمـة التـي تخفـي بيضتـين في مقدمـة فـردتي حـذاء رجـالي متسـع تلبسـه، كانـت قـد تسـولته:

- النـدى يمـلأ القـش يـا ثريـا، فـلا تنـشري الملابـس الآن كـي لا تلـوث، اصـبري قليـلاً حتـى يجـف القـش، ثـم انـشري الغسـيل بعـد ذلـك ولا تقعـدي في وجـه الشـمس، سـأحضر لـك مفرشـاً مـن أكيـاس

المبيدات التي يرش الزرع بها، لقد غسلته جيداً، لتغطي الملابس به، وذهبت لتخبئ البيض بحجة أنها تبحث عن أكياس لتغطيه الغسيل حتى لا تلوثه الطيور من دجاج وغير ذلك على السطح.

وتملأ (نعيمة) براميل ماء الشرب ماءً ثمّ تحمله في البَلاصِيُّ على رأسها؛ وهو-البلاصي- جَرَّة مصنوعة من الفخار، ذات عُرْوَتين ، تستعمل في نقل الماء.

.. نزلت ثريا السّلم الخشبي بخفة، وفي يديها إناء ألمنيوم قد انفض ما فيه من ملابس، وتقول لنعيمة:

-أنت هادئة وباردة كثيراً، وأنا عكسك، يا سعادتك بحذائك البلاستيكي الأخضر، فهو مقاس قدميك بالضبط، ما إن أنهت حديثها حتى كادت قدم ثريا أن تنزلق من على السلم الخشبي.

-(حرام عليك) أتحسدينني؟ خففي سم عينيك، لدي همٌّ كبير.

قال فارس لنعيمة بينما كانت تقوم بإخفاء اللبن في إناء، والبيض في إناء آخر وتغطيه بالملابس والأقمشة: قال صلي الله عليه وسلم : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له»

أجابت ثريا بصوت كعبير أزهار القرنفل والياسمين ناظرة لنعيمة باستغراب:

-(حرام عليك) لقد أمنك من في البيت فلا تخوني الأمانة.

قالت نعيمة وهي تشعر بالخوف والحرج:-اسكتي اسكتي أحسن لك من كشف المستور.

.قال جمعة في غضب:

-كشرت نعيمة وستكشف سترك، وتقول كل ما تعرفه عنك يا ثريا، اسكتي خير لك، هناك أشياء تظن السيدة أشرقت أنك أنت من أخذها.

انسحبت ثريا من المكان بهدوء وكأنها لم تسمع شيئاً، ذبلت مثل شجرة الفلامبويا ذات الأزهار الحمراء، وانكمشت مثل قطة في ليال ممطرة.

قال جمعة لنعيمة في طمأنينة:

- السارق يذهب إلى النار، أرجو أن تضعي ذلك نصب عينيك.

قالت نعيمة:

-الطعام يفيض، فترميه ثريا للبط ليأكله، أستحلفك بحياتك، طعام يكفي سكان البلدة!!! هم أناس لا يشعرون بالجوع الذي يمزّق بطون الضعفاء واليتامى والفقراء، ولكن فقرنا لا يعطينا الحق في السرقة والخيانة، وكل خطأ سيحاسبنا الله عليه.

...جلست نعيمة في فرحة وانشراح أمام الفرن الفلاحي المبني من الطوب اللبن، وقد أشعلته نعيمة بالحطب والقش، وبدأت تعلو طقطقة الحطب في النار المشتعلة داخل الفرن، وقفت ثريا أمام نعيمة تخبز الخبز البلدي على مقاعد خشبية، وفجأة جاءت السيدة أشرقت إليهما وقالت:

-رائحة الخبز الساخن في الفرن جميلة، أنت خبازة شاطرة يا نعيمة.

وكانت ثريا تعجن العجين بهمة ومهارة وبساطة، وتقطعه قطعاً كروية، ثم تضعه أمامها على الطبلية وتغطيه بقماش نظيف،

وتقول مفتخرة بعملها: -أعجن العجين على قليل من نخالة القمح فيصبح خبزاً بسهولة.

وقامت نعيمة بتقليب نار الفرن أمامها بعصا حديدية، ثم دست بضع حبات من البطاطس تحت رماد الفرن. فنادتها ثريا قائلة:

- ضعي لي حبتين من الكوسا إلى جانب البطاطس، وسأقلي البيض على الكانون فيتناول جمعة فطوره، وأنتهي أنا من هذا العمل.

.أخرجت نعيمة الخبز من الفرن بوساطة عصا حديدية، وتعطي الخبز للسيدة أشرقت، فقالت ثريا:

- رائحة الخبز المحترق ملأت الدنيا، (يخرب عقلك) انتبهي للفرن، فأنت مشغولة في حب جديد.

....السيدة(أشرقت) بيضاء، طويلة قامة، وذات وجه مدور كالبدر، وإطلالة مضيئة كضياء نهار ربيعي جميل، وعيون واسعة كعيون الغزلان، وشعر طويل ذو ضفيرتين تصلان لأسفل ظهرها، ابتسامتها عذبة كفجر جميل، مرهفة الإحساس رقيقة وطيبة القلب، فهي لا تحمل الأحقاد على أحد مثل سماء زرقاء صافيه، ترتدي ملابساً حريرية جذابة وزاهية الألوان، ويزيدها الذهب في يديها

وصدرها جمالاً، كما كانت ترتدي حلقاً ذهبياً يأخذ شكل الهلال و خلخالاً جميلاً في قدمها، وكانت تبلغ الثلاثين من عمرها.

غطّت شعرها بالعصبة وعقدتها على الجانب الأيمن، وتسدل طرفها على كتفها، طيبة مثل أرض يكسوها العشب الأخضر، والخير يجرى في يديها كالأنهار يسقى الشارد والوارد.

-الخبز حار كالنار، ربنا يبعد عنّا النار وعذاب النار، نريد خبزاً ليناً وطرياً من أجل سندويتشات الأولاد.

وخرجت السيدة أشرقت وتركتهما تعملان، فقالت ثريا:

- أوضعت مع البطاطس شيئاً؟ أم خفت أن تراك هنية أو السيدة أشرقت فتكشفان سرك؟

أجابت نعيمة وهي تشعر كأن دوامة عنيفة ابتلعتها وهي على شاطئ الخزي والعار:

-لا شيء إلا البطاطس للغداء.

قالت ثريا:

-أتلعبين على يا بنت يا نعيمة؟ على العموم مصيري أن أعرف ما تخفيه عني.

فقالت نعيمة:

-وعلى ماذا؟ ولا تحيري نفسك، عندما ذهبت لجلب ماء الشرب وجدت قطعة حلق ذهبية.

قالت ثريا:

-(يخرب عقلك) يجب أن تسألي عن أصحابه.

-أنا أعرف صاحبته، ولو قلت لها أني وجدته في مكان كذا... فلن تصدق، وأخاف أن تتهمني بسرقته من بيتها بينما كنت أضع لها بَلاصِيٌّ ماء في برميل صغير.

-أخرجيه من النار بسرعة، (الدهب يسيح يا خايبة)

قالت نعيمة: سأفعل ذلك برمش العين.

-لا اطمئني، سأعطيه لصاحبته (أضمن الحلاوة)، فستفرح صاحبة الحلق به وأنا أسترزق مصاريف الأولاد، وما إن انتهت من حديثها حتى رأت جمعة يقبل عليهما قائلاً:

-(الحقيني يالله بالفطار) رائحة الخبز في الفرن جميلة جداً.

-لا تأتي إلينا أمام الفرن فتجعلنا نغضب.

قالت نعيمة بغيظ:

-لماذا يا ثريا؟ هل نجلس دون ثياب؟!!

ثم التفتت لجمعة وقالت:

-عندما تأتي لترانا وتطمئن علينا، تسألنا هل نحن بحاجة لشيء؟

قال جمعة بغضب وخجل:

-لست محتاجاً لشيء منكما، سأرسل من يشتري لي الفول والطعمية ساخنة من مطعم جديد سمعت عنه من خالتك هنية.

-أغضبت مني يا جمعة، لو كان الطعام من بيتي والله ما عززت عنك رغيف خبز ولا عشره أرغفة.

قال جمعة بصوت جريء يغطي به خجله:

-السيدة أشرقت تعرف أن فطورنا من هنا، ولقد طرقت الباب بعصاي، وأنا أقيم هنا فمن أين أحصل على الطعام؟

قالت ثريا:

-ربنا الرزاق، خليها على الله أنا أضحك معك.

❊ ❊ ❊

(٣)

العاشق

في البيت الكبير الذي يشبه القصور لفخامته وجماله وجمال تحفه الموضوعة عند مدخل البيت، والزهور الجميلة، وروعة الأبواب التي حفر عليها رسم زهرة اللوتس، وبهاء أبواب الغرف الخشبية التي قد خطت عليها الآيات القرآنية، وفرشت الأرض بسجاد ذي ألوان زاهية تتلاءم و الستائر الحريرية الموضوعة على الجدران والأبواب، والنجف الذي يزين أسقف الغرف، كان والد نسيم ذا جاه ومال فبنى ذلك القصر ليتباهى به أمام من هم أصحاب شأن رفيع في المجتمع من داخل وخارج قريته، وكان يدعو كلاً منهم لغرض ما، سواء أكان المأمور، أو واحد من أصحاب التجارة، في الوقت الذي كان فيه فقراء البلدة يعيشون في بيوت من الطوب اللبن ويسندون باب البيت عند النوم بحجر لكي يستطيعوا إغلاقه. يجلس نسيم عبد المعطى (أبو فارس) إلى المائدة ليتناول طعام الإفطار، وهو ذو وجه جميل، وشعر أسود قصير، وابتسامة جذابة، وصوت رجولي، يتسم بالذكاء، وأمامه مجلة

الإرشاد الزراعي في أول إصدار لها سنه ١٩٥٦، فطواها ،ووضعها على المنضدة أمامه، ووضعت (نعيمة)أمامه الإفطار الذي تكوّن من الشاي و اللبن والسكر وكوماج والعسل الأبيض والجبن والقشدة والبيض المسلوق.

-أين أم فارس؟

-سيدتي أشرقت قادمة حالا.

كانت أم فارس السيدة أشرقت تتجمل أمام المرآة الضخمة، حين دخلت نعيمة تستعجلها قائلة:

-والد فارس في انتظارك على مائدة الطعام يا سيدتي.

فأجابتها:

-اتركي النوافذ مفتوحة في البيت كله، وأغلقيها قبل الظهر،

قالت نعيمة:

-حاضر يا أمَّ فارس، سأغلق النوافذ ولو أصيب أحد (بعد الشر)بوعكة صحية فسيزول المكروب، و سأجعل الهواء يدخل المنزل صباحاً.

تفتح أم فارس الباب وتخرج وتغلقه خلفها، وتهلّ معها روائح الفل والياسمين، فهي بهية المنظر، مبتسمة ابتسامة تنمّ عن أسنان بيضاء ناصعة كاللؤلؤ، حواجبها مقوسة كالهلال، وقد اختفى شعرها تحت منديل رأسها ماعدا ضفيرتين غليظتين تصلان إلى أسفل ظهرها، وعلى كتفها وشاح حريري رقيق، فهي تتميز

بالأوشحة الحريرية الرقيقة الملونة، وكانت يديها البيضاء الرقيقة لم تعتد خشونة الأعمال المنزلية، وقد وضعت أمامها منديلاً معطّراً من القماش الأبيض، وتسمع رنين أساورها من حولها.

أخذ نسيم بيك المنديل ووضعه في جيب الجلباب الذي يرتديه.

- كانت ثريا ونعيمة تأكلان الجبن والقشدة مع الخبز الطازج أمام الفرن.

تسلل فارس بن نسيم بيك خارج المنزل، فنادته أمه (أشرقت) قائلة:

-ألم يكفك ما فعلته بوجهك؟ انظر إليه، لقد أحرقته الشمس، وضعف جسدك لكثرة اللعب والجري واللهو، فأنت تصطاد السمك، وتلعب بالكرة، فقد جف جلد رأسك من الحرارة واللعب لوقت طويل تحت الشمس، وامتلأ بالأتربة والدمامل، ولقد سقط بنطالك القصير على الأرض لضعفك، ولا وقت لديك لتضبطه بالحزام على خصرك.

قال والده: ها قد بدأت الدراسة، عليك بنسيان الفوضى والاجتهاد والمثابرة، أريدك أن تكون عالماً أو طبيباً ناجحاً أو شاعراً مثل محمود سامي البارودي. لماذا لم تذهب إلى المدرسة اليوم؟

-اليوم إجازة و أصدقائي يلعبون بالكرة ويصطادون، وأنا أملك نبالاً ويمكن أن أصيد بها العصافير، وأتسلق الشجرة، وأجعل العصافير تطير من عشها.

-ستأكل ومن ثم تدخل غرفتك لتدرس، وحذار أن أراك خارج البيت، إذا أردت الترفيه عن نفسك فلك عشر دقائق تلعب فيها الكرة هنا أمام البيت، وأنت ممنوع من تسلق الشجر، أخشى أن تقع وتكسر قدمك أو ظهرك أو تصاب في رأسك.

-سمعت بابا يقول عشر دقائق لا أكثر.

جرى فارس وأمسك بالهاتف.

- بمن تتصل؟

-صديقي أريده أن يأتي ليدرس معي.

حزنت نعيمة لحزن جمعة فقالت:

-أرى أن تطلق لحيتك، وتحلق شاربيك، وتضع التلفيعة حول وجهك ، فبذلك يستحيل لأحد أن يعرفك، وانظر إلى الدنيا وتتمتع بنور الشمس وهي تحضن ضياء القمر، وتقبل نسمة الهواء الرطبة.

-لقد هربت من قنا لأنني لا أريد الأخذ بالثأر، وقمت بتغير اسمي، وأعيش منذ سنوات في دوار (نسيم بيك) لا أبرحه أبداً،

لقد سمح لي بالخبز هنا، وأمرني بتجنب التعامل مع الناس خوفاً من أن يراني أحد، ويخبر عائلته عن مكاني، فيأتون لقتلي،

ونسيم بيك الآن هو كل أهلي وأصحابي.

- عندي بيت صغير، ولدي بنتان، تزوجت وأنا ابنة الرابعة عشرة سنة، وبناتي في المدرسة، الأولى (سمية) وعمرها أحد عشر عاماً، والثانية(أمل) وعمرها تسع سنوات، ما رأيك أن نتزوج

عـلى سـنة الله ورسـوله، تركـت والدهمـا لقسـوته، (يتلـم المتعـوس عـلى خايـب الرجا)،واعتـبرني مطلقـه أو أرملـة ولا تخشـى شـيئاً، سـأصرف عـلى نفـسي وبنـاتي.

-يعنـي رأيـك أن أخبـئ وجهـي في التلفيعـة، وأذهـب إلى القهـوة لأشرب الشـاي، وأسـتأنس بالنـاس وأتكلـم معهـم، أنـا أعيـش مـع الحيوانـات طيلـة اليـوم.

-لا أريـد أن أكـون أمـة أو جاريـة لأحـد، أو أن يتسـلى بي أحدهـم لشـهور ثـم يهجرني إلى أخرى ، أو أن تضطـر ابنتـاي لأكل المـال الحـرام فيدمرهمـا، وأفضّـل أن أتزوجـك لتكـون زوجـاً صالحـاً لي وأريـد أن أكـون لـك زوجـاً وحياتـك كلهـا، لقـد عَلَّمْتَني أشـياء كثـيرة في الديـن، فأنـا طفلـة صغـيرة في يـد أبيكا يوجهـا للطريـق الصحيـح، وشـابة جميلـة بعقـل أسـتاذة.

❋❋❋

(٤)

أرض الحب

يمتطي (نسيم بيك)حصانه الأبيض الجميل تحت شمس الخريف الدافئة، والهواء المنعش، يرتدي جلباباً بلدياً بلون(بيج)، ذا فتحة مستديرة على الرقبة ومفتوحة من الأمام، وأكمام واسعة عند الكفين، ويحمل عصا، و فوق رأسه مظلة يحملها له شخص يمشي خلف الحصان حافي القدمين، (يتبع نسيم بيك مثل ظله) وذو وجه لفحته الشمس، ،يرتدي جلباباً قصيراً قديماً ربطه بقماش على خصره ليستطيع العمل دون أن يعطله، يضحك (فتح الله) إن ضحك نسيم ، ويغضب إن غضب، وفتح الله صامت دائماً، وكأنه غير موجود ،ويلقي الناسُ تحية الصباح على نسيم بيك، قبل أن يلقيها عليهم -وإن كان البادئ في المرور أمامهم- ويسرع نسيم بيك بالفرس على طريق غير مرصوف، فيعلو صوت حوافر الفرس، ويعدو بالفرس أكثر كلما لاح له طيف سماح يبتسم له ، فهو يودُّ رؤيتها فيسرع أكثر على طول طريق يتميز بترعة تحفّها أشجار كثيرة تجلب له بعض النسائم العليلة في أوائل فصل الخريف، حيث تسطع

الشمس لوقت قصير ثم تحجب نورها بعض السحب القاتمة. يملأ التراب وجه فتح الله الذي يجري خلفه بنشاط ورشاقة، لاهثاً من شدة التعب، ويبادر نسيم بيك رجل يركب حماره، ويحمل عصا معكوفه، ويرتدي جلباباً بلدياً قديماً، ويلف حول رقبته تلفيعة بنية اللون، ويضع على رأسه قبعة صغيرة بنية اللون أيضاً بإلقاء السلام عليه ، ويرى في طريقه بضع سيدات يمسكن حبل البقرة، ويقفن على حافة الترعة ينتظرن البقرة حتى تروي عطشها، وبضعة رجال يرتدون بناطيل ممزّقة، ويحملون بأيديهم نافذة محمّلة بخير البحر؛ السمك البلطي والقراميط، وقد علق بالنافذة أوانٍ وأحذية قديمة، وأعشاب خضراء طويلة، وطيور تطير بالقرب منهم، ولكن نسيم لا يرى إلا وجه سماح ماثلاً أمام ناظريه مرسوماً على صفحة ماء الترعة الهادئة الباردة قليلاً، فتداعبها نسمات فصل الخريف التي تغازل وجهه وملابسه، وتجمّل صورة العشق في قلبه وروحه، ثم يمرُّ بالفرس على نساء تغسل الملابس والأواني في الترعة، ومن ثَمَّ أماكن لا زرع فيها ولا ماء. ها هي (سماح)تغني وتضحك وتقول أمثالاً شعبية مناسبة للحوار بطلاقة كبيرة، وهي حنطية اللون، وذات ووجه جميل، وقوام ملفوف، وشعر ناعم قصير ذو ضفيرتين، وتضع على رأسها غطاء رأس صغير من القماش (كريب)، أبيض اللون مطرّزاً تطريزاً جميلاً، وما إن أطلَّ عليها (نسيم بيك)، حتى اختفى دونه كل شيء أمامها وحولها، وعلى الرغم من الشقاء والعمل في الأرض وجمع القطن، إلا أن نوره أنساها كل هذا. كما أنساها أبا قردان الذي يملأ الأرض حولهم، والمواشي التي ترعى

على الجانب الآخر من أرضه، والساقية التي تدور مع ثور أسود ضخم، معصوب العينين وعلى جبينه غرة بيضاء.

وصل (نسيم بيك)والسماء مغطاة بغطاء سحابي رقيق، يكاد يصل إلى الأرض ،وكانت النساء تجلسن على مفرش كبير يفرزن القطن، فأحسّ بالراحة حين جلس تحت ظل شجرة ومن خلفه جرن كبير، ورجال تنقل الحطب، وتجمعه إلى بعضه على شكل حزم ضخمة، ويزين الأرض بروائحه العطرة.

فرأى الفلاحون الموجودون في الأرض نسيم بيك قادماً، يقترب منهم فقال أحدهم:

-وصل نسيم بيك

.وقال آخر:

-فليضبط كلٌّ منّا نفسه، (نسيم بيك لا يحب الحال المايل، ولاضحك على الفاضي ،ولا كسل عن الشغل)

ارتفعت العيون واستدارت الرقاب نحوه باحترام ورهبة حتى مرَّ بينهم، ثم أخذوا يعملون بهمّة ونشاط، فجمع بعضهم أكوام الحطب المنتصبة إلى بعضها أمام الجرن والسواقي، ووضع بعضهم الآخر العلف أمام الماشية الواقفة تحت ظل الأشجار، وأبو قردان والهدهد مبدور هنا وهناك، وعلى بعد خطوات منهم ثيران يقودها الفلاحون لتحرث أرض نسيم بيك، وقد أحدث المحراث خطوطاً طولية في الأرض.

قالت سماح ذات العينين الباسمتين وهي تجلس حول الأشجار الكثيفة:

-نوّرت الدنيا يا أبا فارس، أغمض عيني فتخطر أمامي، ويأخذني شوقي إليك، أفتح عيني فلا أرى إلا أنت، تلون صحراء حياتي ويذيب حبك جحود الصخر، فيحوله إلى نسائم عليلة.

أجاب نسيم سماح بعينيه قائلاً:

-لا أرى شمس النهار إلا إذا رأيتك، أنت في كل مكان حولي، حتى وأنت بعيدة عني لأنك تسكنين قلبي، وتستريحين على شواطئ عينيه، فقلبي بيتك وسكنك، حبك يتملكني، أراك في نومي و يقظتي، لا أريد أن أرى سواك ،فأنت أجمل من الزهور ،كم أنت امرأة مثيرة ومسلية وطيبة!!

فأجابته وهي تجلس على مفرش تحلج القطن مع مجموعة من والبنات والنساء: أرى في جبينك شروق الشمس على الحقول والترع والبحور، وفي سحر حديثك ألوان الزهور، ودقات قلوبنا تغريد الطيور، وفي حبنا براءة الأطفال.

- فقال نسيم بيك بصوت مرتفع يُسمِعُ من حوله:

-ما سبب فراقك وزوجك؟

أجابته وهي تقهقه، وتحاول أن تبعد عينيها عن التحديق فيه كيلا يرى فيهما غرقها في بحور العشق، وكأن عينيها لم تعرف الأحزان والدموع يوماً:

-عندي أربع بنات؛ أكبرهم أسماء، وهي تتعلم الخياطة، وأنا مسؤولة عن ما يحتاجون، وأمي (الله يخليها) تساعدني في تربيتهم من عملها في الأرض، أو تبني أفران للعيش للنساء في بيوتهم.

-لقد فهمت، لماذا تم الطلاق بينك وبين زوجك؟ رجل قليل النظر، ألم يرَ جمالك ويتمسك بك؟

- كانت آماله متعلقة في إنجاب ولد.

قال نسيم بيك بحب:

-أنت كشجرة تقابل ضوء الشمس، وتقابلها الشمس فتزداد بريقاً ولمعاناً، أحلامك كأرض حرة دون سجان وقيود وأغلال، زهرة تنام في حضن طبيعة جميلة تغطيها السماء.

قالت سماح:

-وجهك مثل ضوء شمس يتبعني في كل مكان، (حتى وأنا في مخدعي) فيلقي أضواءه على، وكقمر يمنحني نوراً جميلاً يخفف عن روحي أعباء الحياة.

أجابها مبتسماً:

-أنت فراشة بهيجة الألوان كبهجة نور النهار، وندى الأزهار، وعبير الورد والأشجار،

ثم قالت للجميع بسلام:

-فلنقم لنصلي الظهر، ومن ثَمَّ نتناول طعام الغداء، (صار ظل

الشيء كطوله)، لقد خرج وقت الظهر، ودخل وقت العصر، فإذا نظرتن إلى الشمس فسوف تتأكدن من صحة ما أقول.

..وأخيراً وصل فتح الله يلهث، فرآه الجميع وأخذوا يضحكون!!

قال (نسيم بيك)وهو ينظر بعطف نحو فتح الله:

-من قال لك أن تأتي جرياً من البيت إلى الأرض، ارحم نفسك، كم أنت غبي!! انظر إلى الفلاحين، هل ترى أحداً منهم حافي القدمين، فقلبي نزعت الرحمة منه ،أمسك مظلتي بيدي، وأنت تأتي الحقل حتى دون حمار!!!

ارتسمت على وجه فتح الله علامات المسكنة والذلة، وأخذ يمسح العرق عن وجه المليء بالشعر بذيل جلبابه، بعد أن جلس في حضن شجرة وأحنى رأسه أمامه ليجفف عرقه، فألقى نسيم له منديلاً ليجفف فتح عرقه، ثم قال له:

-اترك المنديل لك.

قال الفلاحون:

-(يابختك يا فتح الله، منديل ومنديل من البيك ومعطر)

-أحبّ أن أخدمك بعيني، فأنت ساعدتني كثيراً في ولادة زوجتي، كما تعمل على ستر أبنائي بما تقدمه لنا كل عام من لباس وطعام، لقد كنت سابقاً أستأجر قطعة أرض وأعمل بها، ولكنها كانت تبور على الرغم من اجتهادي في زراعتها، وعندما تركت العمل في الأرض واشتريت خروفاً فمات ، ومن ثم اشتريت نعجة

فاضطررت إلى بيعها بأقل من سعرها، ولما عرفتك اتسع رزقي، وأصبح الخير كثيراً (بارك الله فيك ولك).

-الله العاطي الوهاب، هذا من فضل الله، الله يكرمك

...جلس الفلاحون ليأكلوا حبات الطماطم والمش والبصل الناشف ومخلل البصل وخبزاً بلدياً، وكان الهواء محملاً بعبق الأرض ورائحه اللوز، فلم تكن الشمس حارقة. فوقفت سماح مع (نسيم بيك) ولقد أزعجهما أزيز النحل، فارتفع صوت سماح وهي تضحك قائلة:

-لسعة النحل تقضي على البرد في الجسم.

ونادى العمال في الأرض سماح لتأكل قائلين:

-تعالي للأكل يا سماح.

أجابتهم وقد هزتها اللوعة والحسرة، جالسة في ظل شجرة ونسيم بيك:

- ليت هم الدنيا كله الأكل.

-حرام عليك أن تعذبي نفسك، فأنا في الدنيا موجود.

..وبعد أن فرغ نسيم بيك من الأكل مع العمال في الأرض اتجه إلى أرض خلاء بجانب أرضه وهي ملك له أيضاً، حيث يقوم العمال بحرق الطوب للبناء، بعد صنعه من الطين في قوالب خشبية، وبعد أن يجف الطوب يتم رصه إلى بعضه على شكل مبنى هرمي، ذي فتحتات يشعل فيها النار، فتخرج النار دخاناً كثيفاً مختلطاً برائحة

البلاستيك والكاز التي تكتم الأنفاس، وألسنة النار مرعبة للغاية، والناس حولها، فمنهم من يقوم بصنع الطوب وهو حافٍ وأرجله مغطاة بالطين، ومنهم من يقوم بصنع الطوب، يرتدي بعضهم بنطايل متسخة يثنون الأطراف السفلية للأعلى، و يثني بعضهم الآخر جلبابه على خصره، حتى لا يعطله أثناء العمل.

فقال لهم:

-(الهمة يا رجال)، أريد بناء دور حضانة صغيرة لخدمة أطفال المنطقة، وإلا فسأطيح بالمتخاذل الكسول.

أجابوا:

-(الله يوفقك) نحن نعمل ليل نهار، فلقد أطاح زعيمنا ناصر بالاستعمار البريطاني، والملك وأعوانه والذل والفساد.

وقال آخر:

-(الله يوفق رئيسنا)،محمد نجيب أو ناصر كلهم أولاد البلد، فعلاً لنضمّ الليل مع النهار في العمل.

...ذهبت نعيمة إلى سيدتها (أشرقت)تتصنع الأسف والحزن لتخبرها أن سيدها يجلس مع النساء في الحقل، ويضحك معهم ولاسيما سماح، وعين (نسيم بيك) تأكل سماح، وأنه أكل معهم، حيث أكل البصل الناشف والمش وترك الوز والحمام الساخن، ولم يأتِ ليتناول طعام الغداء.

..قالت أشرقت بغيظ و حزن وأسيد:

-لا يمر يومان إلا ويعشق امرأة أخرى، عمَّ يبحث؟ فهو لا يحب امرأة بعينيها، وإنما يبحث عن السعادة، فيظن أنها في معرفه النساء، يملك من المال الكثير فينصب جلُّ اهتمامه في البحث عن السعادة، يرى البلدة مملّة بالنسبة له ليس فيها أحداث مثيرة، فيعتبر النساء ورق مجلة ملون يبهج عينيه، كما تبهج الصور الصغار، على الرغم من أنه يستطيع أن يجد السعادة في أشياء أخرى كثيرة؛ كالقراءة والسفر والرحلات ومساعدة المحتاج،

-أو أن يوجه هذا المال (الذي يضيعه على النساء) لبناء بيوت للفقراء.

***

(٥)

بخت

تقف السيدة أشرقت أمام باب المطبخ وتقول:

-على أن أعمل كل شيء بنفسي،(ناقص أكنس وأنظف وأنتم خواجات، تأكلون وتشربون وتأخذون مهايا وخلاص)

أجابتها ثريا وهي تدير لها ظهرها، وتتلمس بإعجاب شديد راديو فيليبس:

-اجلسي و استمعي للراديو يا ست أشرقت، واقرئي مجلة حواء، يقولون إنها مجلة جديدة ودعينا نعمل، و سترين ما يسعد عينيك وقلبك،(سنجعل بفضل الله كل حاجة فل الفل).

جلست السيدة على كرسي رائع بمزاج عال بجوار النافذة، وأبعدت الستارة عن عينيها قليلاً لترى الطريق، وحدّثت ثريا وهي تنظر إلى البحر والأشجار الخضراء التي تقبّل وجه السماء، وقد كانت الشمس تزيد الأشجار نضارة وبهاء، وحين تفتح محلات البقالة الصغيرة أبوابها يتلألأ زجاج (فاترينات) عرض الحلويات

في ضوء الشمس، كما رأت معصرة القصب ومقهى صغيراً يجلس عليه بعض الكسالى في وقت الظهيرة ليحتموا من حر الشمس، وعصافير تغرد على الأشجار، وأشجار تتراقص مع النسيم الرقيق، وطيور تملأ السماء، وكلاب تنبح و تجري هنا وهناك.ثم قالت:

-جديدة؟؟!! تقولين أول صدور لها منذ عام؟ سأطلع القمر، فالدنيا فانية، والله إني أشعر وكأني شخص مذنب محكوم عليه بالإقامة الجبرية في معزل عن الناس.

لقد تأخرت اليوم يا ثريا؟!

أجابتها ثريا بمكر:

-أختي ورد (بعيد عنك) مريضة فأخذتها إلى المستوصف.

قالت أشرقت بصوت كرائحه شجر اللوز:

-أختك تنادي على بضاعتها منذ شروق الشمس.

.ردت ثريا بسرعة والغيظ يأكل أحشاءها:

-أختي ورد، تهمل نفسها، فصممت ألا أتركها مريضة، فذهبت معها إلى المستشفى.

- إن تأخرت عن العمل مرة أخرى، فلا تأتى هنا، وابحثي عن عمل آخر في مكان آخر، لكني لا أطيق البيت على هذا الوضع.

تداركت ثريا الموقف وقالت:

-ومن ستحلُّ مكاني؟ وأنا سرّك لا أرى ولا أسمع، وكأني غير موجودة.

قالت السيدة أشرقت بحزم وقوة:

-حياتي نظيفة يا قذرة.

-أعـرف أنـك نظيفـة، ولكـن نعيمـة تـأتي بسـحر لـك، وتضعـه لنسـيم بيـك في الشـاي والعصـير، ومـع ذلـك كل يـوم مـع امـرأة غـير التـي سـبقتها، كان الله في عونـك.

- (لا سـحر ولا سـاحر كلامـك فـاضي)، ولم أعـد أؤمـن بالسـحر، فزوجـي يعـرف السـيدات الواحـدة تلـو الأخـرى، وكأنهـم مكسـرات يتسـلى بهـا قليـلاً، ثـم يلقـي بهـا في مزبلـة الذكريـات. اغـربي عـن وجهـي فأنـت مـن النـوع الـذي يهـوى النميمـة والكـذب.

.فقالت ثريا في نفسها:

-دع الكلاب تعوي والقافلة تمرّ.

...اجتمعـت الأسرة؛ فـارس ابـن عـشر سـنوات، وناجـي ونبيـل تـوءم ثـماني سـنوات، ونعيـم سـت سـنوات، وسـميرة أربـع سـنوات، والأم أشرقـت، والوالـد نسـيم بيـك، في غرفـة الصالـون الفخـم ذي السـتائر الرائعـة، وقـد أضـاءت الخادمـة (ثريـا) (الكلـوب) ووضعتـه عـلى منضـدة صغـيرة مرتفعـة، وعندمـا فـرغ الأولاد مـن تنـاول الطعـام أخـذت نعيمـة الأطبـاق محدثـة جلبـة كبـيرة.

.فنادتهـا السـيدة أشرقـت في هـدوء مثـل جمـال الأفـق في الصبـاح قائلـة:

-خـذي الأطبـاق بهـدوء يـا نعيمـة، أتعلنـين الحـرب،أم تشـيرين إلى هجـوم مـن قبـل العـدو؟

.فقالت نعيمة باستغراب:

-في بيتنا أحرار، سآخذ الأطباق بهدوء، نحن أشراف، ولم نخطئ أو نفعل العيب.

.قال نسيم بيك وهو يضحك ضحكة رنانة:

-العقل زينة، يعني، إ ذا سمعت الدنيا ما نفعل، أفضل من عين تصيبنا، من الممكن أن نستمتع في حياتنا من غير ما نكشف للآخرين أسباب سرورنا و اجتماعنا معاً.

.فقالت ثريا:

-(بعد الشر عنك يا ضي عينينا)،فكلامك عين العقل.

قال نسيم بيك لابنه باتزان وحكمة:

-درست يا فارس ،أخرج اللعب من عقلك ، اجتهد مثل أختك.

-درست مع صديقي هشام، وسأدرس أكثر عندما تنير الكهرباء بيتنا، ما هذه الصورة يا بابا؟؟

أجابت أشرقت:

-صورة الزعيم جمال عبد الناصر.

ثم قالت:

- هناك أناس تدرس على شمعة، وتقدموا في حياتهم، اجتهد يا فارس.

فقال نبيل:

– لـدي صديـق هـو الأول عـلى الفصـل؛ مجتهـد ومتفـوق ، لكنـه يـدرس عـلى لمبـة الغـاز.

قال نسيم:

–الإرادة هـي المهمـة، وأنـا أعـرف أهلـه أنـاس فقـراء جـداً، إيـاك أن تحـدّث زميـل لـك عـن فقـره.

قال فارس:

–اترك لي هذه الصورة أعلقها في غرفتنا يا أبي.

قالت ثريا برعب وفزع:

–(من يقترب من الصورة ويخرمها بإبره يدخل السجن)

ابتسم نسيم ابتسامة عذبة على شفتيه ثمَّ قال:

–علينـا احـترام قائدنـا والصـورة سأرسـلها إلى المصـور ليصنـع لهـا إطـاراً وأعلقهـا في المضيفـة.

فقالت أشرقت زوجة نسيم بيك:

–قبضـوا عـلى الكثـير مـن مناطـق حولنـا، وأنـا أخـاف عليـك مـن الإهانـة، ومـن الممكـن أن أدعـك تعمـل بالسياسـة، ولكـن أخـاف عليـك مـن الـضرر، ولـن أبعـدك عـن النسـاء لأضرك أنـت أغـلي عـلى قلبـي مـن ذلـك، أمـا بالنسـبة لفـارس (سـلني أنـا عـن فـارس) فابنـي طيلـة النهـار هـو وصديقـه يصنـع طيـارة ورق، وأخشـى عليـه مـن طلـوع الأشـجار وتسـلقها مـن أجـل الإمسـاك بعـشِّ العصافـير.

قال الأب:

-(ربنا يبعد عنا البلاء)، وأنت يا فارس ماذا تكتب في الامتحان؟ أتترك كراسة الإجابة فارغة، وتفشل وتشعرني بالخجل أمام الناس؟ أنا أحب أن تلعب وتعيش طفولتك، ولكن عليك اللعب هنا أمام المضيفة كيلا تغيب عن ناظري والدتك، فهي تراك من النافذة، وتطمئن عليك من وقت لآخر، دع أصحابك يأتون للعب معك أمام البيت.

فقال نسيم:

-الله يجعل بلدنا أمان للأبد.

جلست ثريا على الأرض بالقرب منهم، تخيط لعبة (عروسة) قماش ..(لسميرة) ابنة نسيم، وأعطتها لسميرة، فقامت الأخيرة بوضع عروستها في علبة أحذية فارغة، وقد فرشت العلبة أقاصيص من القماش اللامع.

فقالت سميرة:

-أجمل عروسة في الدنيا.

تقول لها السيدة أشرقت بكلمات رقيقة رقراقة:

-سنسافر قريباً مدينة النور، ومدينة النصر، دمنهور ونشتري الملابس للأولاد والعرائس واللعب لهم، وكل شيء يتمنونه، وسميرة لديها عرائسها تتسلى بها، فهي كأبيها تحبُّ أن تتسلى وتجامل، ولا تحب أن تحرج أحداً.

قالت ثريا وهي تخيط الأثواب للعروسة من أقاصيص أقمشة لامعة، وكأن قلبها لا يحمل أحقاداً وبريئة براءة طفل مولود:

-لأني أحبها فأنا موافقة أن أكون أراجوز وبلياتشوا لحبيبة قلبي سميرة بنة نسيم بيك الغالي عندنا كلنا.

قال نسيم:

-نسافر بعد جمع القطن.

أحس بانزعاج ثريا فقال:

-المدينة رائحة عوادم السيارات، والازدحام.

قالت سميرة:

- أنا أحبك جداً يا ثريا، أنت تحضرين لي أقاصيص القماش الملونة لأغطي بها كل عرائسي، وأحبك يا أبي في وجودك، أحلم بكل شيء حلو.

فقبلتها ثريا وهي تنظر بإعجاب لنسيم، وترسل نظرة لحبيبها على غفلة من السيدة أشرقت.

.قالت ثريا وهي تغني وتنظر للعروسة في يديها:

-(الشب الأسمر جنني يا عيوني سلبلي عقلي مني، الله الله غيرو ما بهوى شبان . و عيوني.

ولا بريدو يبعد عني دخيل الله . الله الله. وحياة الله.

...تضايق (نسيم) من ثريا، و لكنه لم يلتفت لها، ويقول وهو ينظر لأشرقت باحترام وحب.

-دع الأطفال تلهو مع الأطفال الأصغر، ويمسك نسيم ابنه من أذنه ويقول له:

-ادرس جيداً وإلا سأحرمك من المصاريف.

حدثت ثريّا في نفسها وقد ارتسم الانزعاج على وجها:

-أأفضح أمري من شدة ولعي وحبي واشتياقي لنسيم؟ وهل سيتضايق مني؟ وهل من الممكن أن يقوم بطردي من منزله؟ وكيف سآراه بعد ذلك؟

قالت أشرقت وسحر الحب ينفذ إلى عواطفها وقلبها:

-يجب أن تحلم وتتعلم ولا تستند للأحلام فقط، يجب أن تكون أنت وأخوتك مثل أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم، العالم الذي قدّم إسهامات كبيرة في البصريات والرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والهندسة وطب العيون ومجالات أخرى.

قال الأولاد:

-(احكي لنا حدوته يا ماما)

قالت أشرقت بابتسامة عصبية وفي يديها منديل صغير قماش أحمر وضعته حول فم ابنها الصغير:

-أأروي؟؟ هذا الوقت للمذاكرة أولاً.

أجاب الأولاد:

-اروِ لنا يا أبي حكاية .

قال نسيم لزوجته أشرقت بمودة حتى يشغلها عنه، وكأنها دنيته:

-اروي لهم الحكايات يا حبيبتي، أمّا أنا فسأخرج إلى المقهى، يا زهرة الثالوث على شرفات قلبي.

أجابت أشرقت بمودة وحب:

-(خليك نلعب سوا شطرنج)

فقال نسيم:

-إن أتيت باكراً، فلك ذلك.

- (تجي بالسلامة)

ثم أخذت أشرقت تغني :

-ماليش أمل في الدنيا دي

..غير أني أراك متهنّي

حتى إن لقيت أن بعدي

راح يسعدك ابعد عني

أما أنا مهما جرى

حأفضل أصون عهد الهوى

وإن غبت يوم ولا سنة

حأفضل أنا برضه أنا

ثم قالت بهدوء تستدعيه من زلزال الأسيد والحزن بداخلها:

-(كان ياما كان) حين احتل الفرنسيون البحيرة، ثار أهل البحيرة على الفرنسيين مرات عدة . وكان الفرنسيون يشنقون أعداداً كبيرة من الأهالي وكبار البلد وكل من يتصدى لهم. و يتخذون منهم رهائن ليكفوا عن الثورة، ولكن أهالي البحيرة لم يسكتوا على الاحتلال .

شعرت ثريا بالغيظ والغيرة يأكلان قلبها من السيدة أشرقت فقالت:

-(أنت شاطرة في الحكايات يا ست أشرقت)،لماذا السيد نسيم يعرف النساء عليك؟ فأنت تجيدين قصّ الحكايات أفضل من شهرزاد نفسها.

ابتسمت أشرقت ابتسامة أنارت وجهها؛ لأنها تعلم أن ثريا تريد أن تغيظها، وتقلل من قيمتها، ثم قالت:

-لأنني نفسه، والإنسان بطبيعته يريد الانطلاق بعيداً عن نفسه ليرى عوالم أخرى، ولأنهنَّ نساء رخيصات حللن لأرواحهنَّ حلال غيرهنَّ، نظير حفنة من المال، ولكنه يشعر معهنَّ بأنه يتسلى في المقهى، ويدفع المال مقابل المشروبات التي يحتسيها، لم يعترف بأي أنثى، وإلا كنت عرفت، أشعر أنه لا يعرف الله كما يجب.

كبت ثريا غيظها ثم قالت:

-هناك من لا يعرف الله ويتزوج كثيراً، يظن الزواج من حقه على الرغم من أنه لا ينفق على أولاده وأزواجه.

قالت أشرقت:

-ما بك الليلة؟ اذهبي إلى بيتك واطمئني على ابنك، وقبل خروجك اطمئني أن هنية أشعلت مصباح الشرفة لينير الشارع لخلق الله.

قالت ثريا:

-لماذا يعشق السيد نسيم امرأة أخرى وأنت سيدة النساء؟! ولا توجد بينهن من تتمتع بخفة الدم ، ولن تضاهيك أيٌّ منهن جمالاً، فجمالهنَّ نقطة في بحر جمالك، (أنت بسم الله ماشاء الله) فلقد بهرني جمالك عندما رأيتك أول مرة ، وقلت لنفسي يا الله، أهناك ملائكة تعيش بين الناس؟

قالت السيدة أشرقت:

-لكل إنسان عيوبه ، أنا وهو وأنت، المهم أن يقتنع الإنسان بحلاله.

فقالت ثريا:

-هناك نساء تطمع في مال الغني، إلا أنا أحبُّ للحبِّ نفسه.

-الحياة الزوجية ملل ورتابة، والرجل بطبعه يحب التجديد، ولا يوجد بيني وبين نسيم بيك سوى الاحترام والتقدير.

-الرجل يخشى على نفسه الملل مع زوجته الأولي، كما يخشى الكبر والشيخوخة فيبادر لمعرفة النساء.

حاولت السيدة أشرقت كتم غيظها فقالت:

-(كل شيء قسمة و نصيب)،وأخشى أن تصبح هذه الفيلا سجناً يتم فيه تعذيبي، وأنا التي أبدو سعيدة في نظر الناس، إن قلبي يتمزق من الأحزان، والمأساة أن زوجي يكرمهن حين يتزوج منهنَّ بطريقة (الزواج العرفي).

***

(٦)

أحزان جمعة

...يمر نسيم بيك أمام باب الدوّار فيلقي تحية المساء على جمعة، الذي يجلس على كومة قش أمام باب غرفته، في هدوء تام لا يسمع سوى صوت خوار الأبقار حوله، وبعض الدواجن، ويضع على ركبتيه جلباباً وعلى كتفيه بطانية كبيرة، لقد كان يشعر بالبرد الذي يختلط بالحزن والغربة عن أهله، متخذاً من الناي رفيقاً له يحدثه عن ما يزعجه، لم يرد السلام إلا بعد لحظات حين أفاق من أحلامه وأمانيه، بكى وحدته متقطع الأنفاس، وأرسل تنهدات تشقُّ الصخر، وملأت روحه هواجس تتنقل من مكان إلى آخر، فهو كلص يبحث عن غنيمته، وكحشرات تختار طريقها بحذر دون أن يلمحها بشر، فيمسح دموعه بطرف تلفيعته التي يضعها على رأسه وحول وجه.

..عاد (نسيم بيك)وطرق باب الدوار بعصاه، ففتح له جمعة،

-ما بك يا ولد يا جمعة؟ ما سبب حزنك؟ أصليت المغرب والعشاء؟

- أريد أن أحدث أمي وأكلمها، وأريد رؤية إخوتي الشباب و البنات، كما أريد أن أرى أصدقائي، وأن أملأ صدري بهواء (قنا) التي تربيت فيها، يا ترى من منهم مازال على قيد الحياة ومن مات؟ يا ترى من أنجب ومن مرض؟ كنت أزرع أرضنا بأمان وأغني وأحلم.

-الصبر جميل، أتظنني نسيت قصتك؟ قل يا رب، صلِّ لله ،ولا تجلس في الظلام، واذكر الله يذكرك، وإياك أن تفتح الباب للشيطان فيدمرك، اذكر الله فقط.

-لا إله إلا الله، اشتقت لبيتنا، ولفرحة أمي حين أكلمها، ولضحكة أختي وهي تقدم لنا الشاي، ولوجودي في النهار مع الخدم أضحك معهم وأعمل ونتسلى، و للحراسة البهائم في الليل، أين حنانك يا أمي؟

-بسبب دعائها لك، أرجو من الله يحبب فيك خلقه، وييسر لك أمورك، من الممكن أن تكلم والدتك وأهلك بالهاتف، لكن منزلك لا يوجد فيه هاتفاً، وأي رسالة أبعثها ستعرف بها البلدة بأكملها.

قال جمعة:

-تراكمت مع الغروب أمام عيني سحب الهموم والأحزان، والذكريات العطرة تزيد المرارة في القلب، وضربت الهموم على وتر الأشواق، وغلفت المشاعر بحسرة ولوعة تسري في عروقي، والذكريات القاسية تزيد من الغم فتجثم على صدري كحجر ضخم، وزرعت الهموم في قلبي أوتاد من الحيرة والقلق.

-سأذهب إلى بلدتك قريباً لتتصافى مع عدوك، وتعيش حياتك، فعين الله لا تغفل ولا تنام، وسأحضر لك مذياعاً صغيراً لتستمع له وقت فراغك.

غمرت جمعة نفحة من نفحات السعادة، فقال:

-ياريت.

فقال نسيم بيك حتى ينفسَّ عنه ما يجيش في صدره:

- لقد مللت من الدوار وتريد الخروج لمعاكسة النساء؟ أليس كذلك؟

- أجاب جمعة بتعقل:

-من ينظر للنساء في الشارع يكون مثل كلب يمشي على أربع، ويهز ذيله، وينظر لكلبة أمامه إن كانت مثله، (كلبة من جنسه) فإن وافقت على مغازلته لها يهز ذيله، وإن نهرته جرى في طريقه.

ابتسم نسيم بيك في برود ثمَّ قال:

-الأسلم ألا تعطي للكلب أهمية، وتسلك طريقاً غير طريقه.

قال جمعة:

- قلبي تنزف جراحه على وردة حمراء في الماضي.

قال نسيم:

-الصبر يا جمعة، اذكر الله يذكرك

.ويخرج نسيم ويسرع جمعة لجمع القش والحطب المنثور هنا وهناك، ويدخله غرفة الفرن على ضوء خافت ينير له المكان،

ويتوضأ من حنفية ملحقة ببرميل ماء مغطى بقطعة خشب كبيرة.

ويدخل غرفته وينير ضوء المصباح قليلاً ويمدُّ سجادة حصير، ويبدأ بالصلاة.

..جاءت نعيمة، وهي ترتدي ملابساً نظيفة، وتلبس في قدميها قبقاباً خشبياً، وتزين رأسها بغطاء رأس حريري، ووقفت تنتظره خارج الغرفة.

-أنت تصلي؟

-ماذا ترين؟

-علمني الصلاة.

-أعلمك، أولاً: أأنت طاهرة أم جنب أم حائض؟ ياشيخة، عليك أن تخافي من الله وتتوقفي عن السرقة، فالله يراك.

أجابت في أنوثة ودلال:

-جنب؟؟!!! أنا عازبة.

أغمض عينيه والتفت باتجاه غرفة الفرن، ثمَّ قال في ثبات:

- تنوين الوضوء، ثم تبدئين بغسل الكفين ثلاث مرات، ثم المضمضة ثلاثاً، يلي ذلك الاستنشاق ثلاث مرات، ثم غسل الوجه ثلاث مرات، وغسل إليدين إلى المرفقين ثلاث مرات، ومن ثَمّ َمقدمة الرأس ثلاثاً والأذنين ثلاثاً، ثم الأرجل ثلاث مرات.

جاءت هنية لتقوم ببعض أعمالها، فحملت طاجن لبن، ثمّ قالت:

-أعلمها الصلاة.

قال جمعة:

- رآهم الرسول صلي الله عليه وسلم في بعض أسفاره لم يغسلوا بعض أعقابهم، فقال: (ويل للأعقاب من النار)، يعني اغسلوها، فيغسل رجله إلى العقب، كما يغسل يده إلى المرفق، قال تعالي. وَأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْنِ[المائدة: ٦]، .

قالت هنية:

-صدق رسول الله.

قالت نعيمة:

-ربنا يفتح علينا كل خير.

قالت هنية:

- لقد نسيت، بعثت لك السيدة أشرقت طبقاً من المهلبية

قال جمعة:

-همتك مع نعيمة، ربنا يهديها وتصلي لله.

-لقد تبت عن السرقة.

فقالت هنية:

-كل ذلك سيظهر مع الأيام، (نعيمة في براءة يوم العيد وناسه تحب بعضها، وتستعيذ بالله من الشيطان وربنا يبعد عنها شر نفسها)

فقالت نعيمة:

-اطمئن فإن الله يراني، مازال عندي بعض الأعمال، ولكني

سوف أؤجلها بعض الوقت، أودُّ أن أتعلم الخياطة، (وكفاية خدمة كل ست غنيه تخدم نفسها وتحرك روحها علشان يبقى جسمها جميل زي جسمي)

.فقال جمعة في ترجٍ:

-لا تؤجلي عمل اليوم إلى الغد، قومي بعملك، وصلي الصلاة على وقتها، فلن تمنعك الصلاة عن العمل. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:

«إذا قامتِ الساعةُ، وفي يد أحدكم فَسيلةٌ، فليغرسْها.

فقالت هنية:

-تعالي توضئي من الحنفية التي في البرميل في غرفة الفرن، وسأتابع وضوئك، وسأعلمك بإذن الله، وإذا أردت أن تتعلمي الخياطة يا بنيتي فلتفعلي ، من الذي يمنعك من فعل الخير؟

.قالت نعيمة:

- أنا كالطفلة.

.قالت هنية:

-كلنا نقضي عمرنا في التعليم والتعلم، وليس هناك من عيب إن أعلنّا عدم معرفتنا بهذا الأمر أو ذاك، ولا بأس أن نتعلم ممن هم أصغر منّا سنّاً(وفوق كل ذي علم عليم)، وعلينا أن نسأل ونستفسر عن ديننا، لنعبد الله حق عبادته.

***

(٧)

جريمة آخر الليل

...يذهب نسيم إلى منزله في وقت متأخر من الليل ،وليس في الشارع حسٌّ ولا نفس إلا صوت أقدام نسيم بيك، وكلب أسود يجلس أمام البيت، قد نبح بهدوء وكأنه يهلل لقدوم نسيم بيك، ويحمل نسيم في يده عصا، وفي اليد الأخرى كشافاً يعمل على البطارية، سمعت أشرقت نباح الكلب، فأزاحت الستارة بهدوء، ورأت زوجها نسيم يصعد الدرج بعد أن توقّف قليلاً أمام باب الدوار، وكان هناك من يراقبه في الظلام، كانت السيدة أشرقت تقرأ رواية وهي تجلس على كرسي بجوار السرير، مثل سمك حيٍّ يُشوى على نار هادئة؛ نار الغيرة التي تلتهم أوصالها وهي مكبلة اللسان لا تستطيع أن تعبّر عن مشاعرها، فهي تخاف أن يغضب منها ويعاندها فيتزوج علناً من امرأة أخرى، ولا سيما التي يحبها، أغلقت الكتاب حين سمعت (نسيم بيك)يفتح باب الشقة بمفتاحه- فقد كانت تقرأ وهي شاردة الذهن تائهة، معذبة-

واصطنعت النوم، دخل الغرفة ليجدها نائمة، اقترب منها وأيقظها وهو يبتسم، فقالت له :

- سأجهز لك العشاء حالاً.

-أريد أن أتحدث إليك، ونقعد سوياً، رائحتك كريهة!! (ارحميني) اشتريت لك صابوناً غالياً لتغتسلي به،(مالك إنت ومال البهائم، زهقتيني في عيشتي)

..قفزت جالسة على السرير، قائلة :

-و هل عطرت سماح حياتك؟ أكنت تسهر معها؟ وعلى العموم لا أعلم مصدر الرائحة.

-تغارين!!إذا كنت كذلك فاهتمي بنظافة غرفتك، ولا تمثلي أنك نائمة.

قالت السيدة أشرقت:

-لا أريد التكبر على من حولي ،أنا منهم وأشعر بطعم الحياة بينهم، دع لجمعة العمل في الدوار، فأنا حين أشعر بقلبك ابتعد عني، ألتحم معهم في العمل، فأكون مجهدة آخر النهار، ولقد استيقظت منذ قليل.

-قله الثقة في النفس ضياع للشخص، لقد كان جسمك في بداية زواجنا ناعماً كالحرير، وشعرك يعبق بأحلى عبير، أتغير عشر سنوات مرّت على زواجنا أحوالك من إنسانة رومانسية حالمة تحب الرسم وسماع الموسيقى، إلى أخرى تعطي أذنها لأكاذيب نعيمة؟

-أنا بخير وعقلي في رأسي والحمد لله.

جلس على كرسي أمام السرير، ثم ضحك ضحكة مشرقة، ثم قال :

-لقد كنت مستيقظة، لماذا تدعين النوم، لا داعٍ للهرب، حدثيني فأحدثك، إذا كنت غاضبة فقولي لي، نتعاتب ثم نتصالح.

-مع الغروب تبدأ أوجاعي، وكأن ظلمة الليل شخص قوي جبّار، يعنفني يعذبني يملأ صدري أحزاناً، وهموماً لا تطاق، وأنا أعلم أنك في حضن امرأة تعشقها، وأنتهي في عتمة الليل، وكل الخدم يستقرون في أوكارهم، وأنا أجلس شريدة بين الضياع والصمت والوحدة.

-أنت ملكة في بيتك لا أحد يقترب منك، ولم أدخل عليك بامرأة أخرى، ولا حكمت عليك أن تزوري أي إنسانه بأي حجة، وتركتك تتصرفين وتأمرين وتنهين كما تشائين في بيتك.

-أنا أقدر لك حرصك على مشاعري والمحافظة على كرامتي أمام الجميع.

وفجأة فتحت ثريا الباب عليهما خائفة، (الحق يا سيدى)،سمعت جمعة يصرخ فهناك من يسرق المواشي.

أخذ نسيم بيك البندقية المعلقة في الصالة وخرج من غرفته.....

***

(٨)

غيرة قاتلة

... هبط نسيم الدرج المؤدي إلى الدوار بسرعة، وقد غُسل بالماء ولم يجف بعد، وجلس جمعة وراء باب الدوار يراقب الشارع جيداً من فتحة الباب، فوجد شخصاً ظنَّ أنه من بلدته، ونزل نسيم عند البهائم، وبالقرب من البهائم غرفة الفرن التي ينام فيها جمعة.

- يا ولد يا جمعة صوت البهائم عالٍ، ماذا جرى لها؟

-أنا نمت طيلة السهرة، واستيقظت في هذا الوقت، على صوت بقرة تلد، فغسلت السلم بالماء.

-(طيب) تابع البقرة وهي تلد، ونادِ فتح الله ليكون معك.

-هناك من يحوم ليلاً حول البيت منذ عدة ليال، لا أعلم إن كان يقصدني أم لا؟

-ومن يعرف أنك هنا يا جمعة؟ أنا أقول لأهالي البلدة إنك من أقارب أناس معارف لنا من أجا، من أين رأيته يا جمعة؟

-هنا من فتحة الباب، هذه يا نسيم بيك ،لا أعلم هل يتبعك أو يتبعني؟

-لا تخف، فالدنيا أمان، من الممكن أن يكون قد جاء لسرقة المواشي.

-ثريا مجرمة، قالت: هناك حرامي، ولكن لما نزلت الدوار وجدت كل شيء في أمان.

-أنا أستيقظ معظم الوقت.

-سأبلغ الشرطة لتتابع الموضوع، أشعر أن أحداً يتبعني وأنا متجه إلى البيت.

-(كلنا فداك يا بيك أنت طيب)

.جاءت أشرقت وعلى كتفها شال وردى وقالت:

-أظن أن ثريا مثل راعي الغنم تحب أن تلفت النظر إليها، فتكذب علينا.

قال نسيم بحدة وغضب:

-اختاري الخدم في بيتك يا أشرقت، وإلا ستعيشين في عذاب، ولا تبقي من يجر عليك المشكلات.

قالت ثريا:

-الحق على، لقد خفت من الصوت.

قال نسيم:

-خفت يا حقودة؟!!

فقالت ثريا بصوت منخفض:

-مـاذا أفعـل وأنـا لا أراك إلا كل مـدة، مثـل قمـر يختفـي خلـف السـحاب ثـم يظهـر ليـضيء بطلتـه ظـلام حيـاتي.

فقالت أشرقت:

-منذ متى وأنت تقيمين هنا ليلاً يا ثريا؟

الليلـة فقـط يـا سـيدتي ،أختـي باتـت عنـد ابنـي فلقـد رغبـت في السـهر معـك لتسـليتك.

-أرجـو ألا يتكـرر هـذا الموضـوع مـرة أخـرى إلا بـإذني، وسـأجد لـك مـكان مـع الخـدم، أو في غرفـة مـن غـرف الـدوار وبعيـداً عـن غرفـة جمعـة.

حدثت ثريا نفسها قائلة:

-صـوت ضحكتـك يـا سـيد نسـيم يـسري في عروقـي، وينعـش روحـي للحـب والحيـاة، ويجعلنـي أندفـع إليـك ناسـية روحـي.

هز نسيم رأسه ولم يلتفت إليها.

..نـزل نسـيم بيـك الـدوار بعـد أن أشـعل بعـض الخـدم المصابيـح لـه، وأطلـق رصاصـه في الهـواء، فاسـتيقظ كل مـن في البيـت مفزوعـاً.

-بمَ سرحت؟

-لا شيء يا سيدتي.

-في يـدي هنيـة أمـور البيـت كلهـا، ولـك عملـك المخصـص ألا وهـو غسـل الملابـس والأواني، ومـن ثـم تذهبـين المغـرب إلى بيتـك.

...كانت هنية سيدة في الستين من عمرها، طويلة ونحيلة، ويظن من يراها أنها أم نسيم بيك.

-ولن يبقى أحد من الخدم في البيت غير من قال عنهم نسيم بيك.

-(حاضر) ولكني كنت مريضة فعرضت ثريا أن تصنع لي كوباً من النعناع وتبقى بجواري.

-(أنا يا نسيم بيك قلبي طيب خالص وأبيض)

..ويصعد نسيم الدرج دون أ، يلتفت إلى ثريا ،سمع صوتاً خافتاً، فوقف ليتعرف مصدر الصوت، فقابلته ابنته الصغيرة سميرة.فقال لها :

-ادخلي للنوم، ولا تخافي.

- سأدخل الحمام أولاً ومن ثم أذهب للنوم، أاشتريت لي الألوان؟ أنت تعلم أني أحب الرسم.

-أشتريها لك غداً إن شاء الله، ادخلي للنوم الآن.

حملها وقبّلها من جبينها، ثم سمع صوتاً صادر من الدرج المؤدي إلى الدوار، ثم سمع طرقاً خفيفاً على باب الدوار.

-افتح يا جمعة أنا نعيمة.

تأكد جمعة أنها نعيمة.

-أعطني علامة.

-(افتح يا خواف)

أسرع جمعة بفتح الباب فوجد نعيمة في الباب على رأسها بلاصي يمتلئ بالماء، وفي يديها قلة من فخار مملوءة بالماء.

-ذهبت لملئهما بالماء، الآن أفضل من النهار، سيراني الناس في النهار ولن أسلم منهم.

قال جمعة:

-افرضي أنك فوجئت بعفريت أو مجرم أو كلب مسعور.

-(يا خبر) كأنك كنت معي، كان هناك كلب يمشي ورائي، إن مشيت مشى وإن وقفت يقف.

***

(٩)

رحلة العاشق

...خرج نسيم من بيته يمشي في الشوارع على غير هدى، تائه القلب والأحاسيس، غارقاً في بحور العشاق، ولا يجد ميناء لتحطّ عليه أفكاره الكئيبة، هل يتزوج ممن يحب؟ وهل يعلن زواجه منها؟ أيتزوجها عرفياً في السر، أم يبعد عنها ليسلم؟ لا شاطئ ترسو عليه سفن هواه وأحلامه، فرطوبة الجو لا تريح قلبه المتعب من العشق، ولسعة الهواء لا تشفي جراحه، والنظر إلى القمر في سماء صافية خلف سحاب أبيض لن يخفف أوجاعه، لقد نزل القمر من عليائه في ليلة بدره، وكأنه مصباح يعانق قمم الأشجار والبيوت وينير الطرقات، واتجه نحو بيت سماح ،يمر أمام بيتها بقوامه الجميل ، ويرتدي الجلباب البلدي الكحلي الغامق ،ويمر من ديارها، فيراها وقد فتحت نافذتها لتنظر إلى السماء، بعد أن ضاقت أنفاسها من عذاب الاشتياق، كما تنظر إلى الشوارع التي فرشت بعض من عيدان الحطب جراء جمع القطن، لم يجد من يثق به، ويحدثه بما يشعر من عذاب الحب والقلق، ولم يثق بمن يفضي إليه شكواه،

فيأخذ الجواب الصحيح المنزه عن المصالح.

-حبى لك يقودني إلى مكانك في أي وقت، ولن يبعدني عنك لوم عزول سواء أكان من الإنس أم الجان، لأن حبى لك حب جنوني، يعذبني الشوق إليك، وأنين الأشجان يسلب من العقل راحته وصوابه، ويلقي به في جحيم وهوان، وأذوب في العشق، وأشقى في لوعته وعذابه في صحراء نار بلا شطآن.

-أنت تسكن عيني كل دقيقة، وتختال بين أنفاسي برشاقة، دقات قلبي تهتف باسمك، لا أريد أن تبادلني الحب والهيام، واعذرني عند اعترافي لك بالغرام، ولكن هل تدري كم أعاني من شوق بلا أمل أو كلام.

-الحب أمر فطري ليس من حقي أن أحلله أو أحرمه على القلوب، صورة وجهك أمامي في الزروع، سيرتك على لساني في كل موضوع، يا نجم الليالي ونور الشموع.

- تغلق الناس أبوابها وترتاح في نوم يأخذها من الدنيا وعشاقها، وقلبي يقفز بين الجراح، يعذبني الشوق ولا حل ولا مفتاح.

-أنا لست صغيراً لأسلك سلوك المراهقين، وأقابلك في الشوارع والمنحنيات والأزقة، لكنني أعشقك.

..ثم يمضى نسيم بيك في طريقه وتغلق سماح نافذتها، ويراقبه من على بعد (فتح الله)ويقول في نفسه:

-يا الله أبعد عننا عذاب الحب، وبعد أن مشى كثيراً نظر في ساعة يده، ها قد اقترب الفجر، يقابل الخفير في الشارع فيقول:

- تصلي الفجر في طريقك الفجر يا (نسيم بيك)؟

-نعم ،الله هو الباقي.

...أشرقت تنادي الخادمة

-نعيمة نعيمة

.فتأتيها ثريا:

-نعم يا ست أشرقت

-أين نعيمة؟ وأنت قلقة وخائفة من أن أطردك؟ فأنا أفهم عينيك وكل ما يدور برأسك.

-لا أفهم قصدك يا سيدتي.

-أنت وضعت كل من في البيت تحت جناحك حتى فارس ابني، ونعيمة التي كانت تتجنبك أصبحت صديقتك المقربة.

-أنا سرك

-وأنا أتقبلك على الرغم من عيوبك، أنت في حياتي مهما حاولت الابتعاد عنك، وهو يبتعد مع الأيام.

.قالت ثريا بمكر:

-أحب أن أفهم قصدك.

-اذهبي بهذه الأقمشة للخياطة لتقوم بحياكتها، فلديها مقاساتي.

***

(١٠)

إياك أن تبكي

...جاءت سنية إلى المشغل باكراً بينما مازالت الناس تصلي في المسجد صلاة الفجر، فلقد كان صوت الإمام مسموعاً للكل وهو يقرأ الفاتحة، والشوارع هادئة يتحرك الناس فيها بسلام وصمت، دون أن يصدر أحد صوتاً يزعج الآخرين حتى سنية، تفتح سنية مشغل التريكو والتطريز، فتشعر أن الراديو يحدث صوتاً قبل أن تفتحه أو تقترب منه ، وفجأة وجدت الستائر على نافذة مكتب السيدة حفيظة تتحرك دون أن تحركها الأيدي أو نسمات الهواء، والكراسي تحدث صوتاً والباب يكاد أن يغلق دون أن تمسه، والفزع والخوف يكاد أن يبتلعها تارة، و تغرق في بحور الرعب تارة أخرى، فيخيم الصمت على المكان، وسمعت أصواتاً خافتة لم تعرف مصدرها، وشعرت أن شبحاً يفتح أرض المشغل ويصعد منها متجهاً نحوها، طويل جداً، ذو شعر كثيف، وعيون حمراء ينطلق منها ضوء مثل شرر نار كثيفة مشتعلة، وشعر رأس طويل يصل إلى الأرض على شكل عقارب، ورأس ذي قرون طويلة ملفوف حولها

أفاعٍ ملونة وذو جسم عارٍ ماعدا منطقة خصره مغطاة برأس أسود تتحرك وكأنها حية، وأصابعه رؤوس الأفاعي، وتحيط به نيران كثيفة أخذ يطاردها في المشغل، وفي يده خنجر، ويدمر كل شيء فيه، وتطاردها الأفاعي التي على رأسه فتمتد لها في أي مكان تختبئ فيه.

ويقول لها بصوت غليظ:

-لماذا أتيت إلى هنا، ثم يدخل الجدار، ويفتح الجدار، ويخرج منه أفعوان ذو عشرة رؤوس يريد أن يبتلعها عندما تتحرك بالمشغل، ثم شعرت بأن وحشاً ممتلئ الجسم بوجه نمر يأتي من خلفها، في يده عصا عريضة، والدم يسيل من فمه ووجه، ويملأ الدم ذراعيه وشعر صدره العاري كسكاكين حادة، وحول رقبته طوق معلق ذو مفاتيح وخناجر، ويرتدي بنطالاً وحذاءً ضخماً للركبة، فصرخت من الفزع، وخبأت رأسها ووجها بين يديها، وهي تشعر أن وحوشاً ضاربة تودّ التهامها، ولا تستطيع أن تنقذ نفسها، وأصبحت سهلة للتمزق والابتلاع.

فقالت لها السيدة حفيظة:

-بسم الله الرحمن الرحيم ماذا جرى لك يا سنية؟ ما الذي أصابك يا بنيتي؟، (ماذا دهاك يا خايبة طول عمرك)

.صرخت سنية من الفزع، وقالت سنية في رعب شديد:

-(المشغل مسكون يا ست حفيظة،طلع عليه العفاريت وأنا عاجزة عن الدفاع عن نفسي)

-(لا مسكون إلا عقلك بالخرافات) لو صليت الفجر، لطارت

الوساوس بعيداً عنك، ونحن نأتي معاً كل يوم، فلماذا استعجلت وأتيت المشغل وحدك؟ ولماذا أتيت من الفجر؟ يجب أن تنتظري طلوع النهار بما أنك تخافين، يمكن أن يكون حرامي في المشغل فيؤذيك.

-قلت أصلي عندما أفتح المشغل، ومن ثمَّ أكنس وأنظف المشغل.

-عندما تدخلين يا أختي لأي مكان قولي ثلاث مرات من أجل أن يحفظك الله من شر كل روح في المكان: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، صعب الكلام على لسانك، أقرأ آية الكرسي والزلزلة وأنت في المكان، لكن لا تتركي الشيطان يلعب بك يا غبية.

وبدأ صوت الناس في الشوارع من المسجد، فمنهم من ذهب إلى أرضه، ومعه المواشي، ويركب حماره ويجرى وراءهم كلب يلهث، ونساء تحمل فوق رأسها خضار لبيعه، وأخريات فوق رأسها أطباق في كنس المنزل وتنظيفه وروث الحيوانات لتلقي به على الترعة، ومنهن من تحمل بيدها زجاجة وتسألها سنية من نافذة مكتب السيدة حفيظة:

- إلى أين تذهبين يا زينب؟

-سأشتري جاز، بدأ الليل، وسأنسيد أشتري الجاز، وأطلع أشتريه في الظلمة، أنت كيف حالك؟

فقالت سنية وعينيها تتجول في الشارع من أوله لآخره، وكأنها تود أن تكشف أشياء خفية.

-نحمده، لو أني كنت في جمالك يا زينب.

-قولي الحمد لله، ولا تبحثي عن شيء يعذب نفسك،

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

..وبدأ المشغل يعجُّ بالفتيات والنساء الواحدة تلو الأخرى، وكأن المياه عادت للأرض بعد تشقق الأرض وعطشها، منهن من تبتسم للحياة، ومنهن من كان على وجهها غيمة وكآبة.

فتقول السيدة حفيظة:

-ابتسمي أنت وهي، وتوكلي على الله في كل أمورك، لا تجلبي النحس للمكان.

السيدة حفيظة: هي والدة السيدة أشرقت، لديها مشغلٌ للتطريز، حيث تمسك كل بنت بغطاء رأس وخيط ملون وتطرزه، وهناك مجموعة من البنات اللواتي تطرزن إما صدر قميص نوم أو مفرش سرير. تقف (حفيظة)-الطويلة القامة والمرحة- وتقلّد كل بنت من البنات في طريقة ضحكها وغضبها وفرحها.

-تمكني من العمل في يديك.

- (أعمل إيه القماش النايلون تطريزه يزهق).

قالت حفيظة مقلدة لزينب:

-أعمل إيه القماش النايلون تطريزه يزهق وجع عينيه وخرمت الإبرة إيديه.

...وتضحك البنات، ويمر الوقت بين عمل وسرور ونفس

راضية شاكرة لربها، وتلبس السيدة أشرقت فستاناً حريرياً مزركشاً بالذهب والفضة، وعلى كتفها شال أبيض، تنادى أمها. تجلس في غرفة المكتب، وتكلم أمها بصوت منخفض، لتخبرها بشكوكها وهي أن زوجها نسيم يعشق سماح، ضربت حفيظة المنضدة أمامها بكفيها.

-مستحيل أن يحصل ذلك، اطمئني، وسأنظر في الموضوع، دعيها لله فقط.

***

(١١)

عروس

تغسل سماح قماشاً قديماً في الترعة، وهي تلمع كنور الشمس، أظهر غطاء رأسها شعرها الناعم القصير ملقى على كتفيها، ذات عيون راقصة، وصوت ملائكي، لقد قامت بجمع الملابس القديمة وغسلتها وأخاطتها بما في ذلك غطاء أبنائها الذي يقيهم من برد الشتاء.

-ابتعدوا عني أريد غسل الملابس في ماء نظيف.

يراها نسيم وينظر إليها ثم يبتسم ابتسامة تتلألأ في عينيه، ثم قال:

-كيف حالك يا سماح.

ضحكت البنات والنساء حولها ثمّ أجبن:

-سماح سماح هي من نظرتها عينيك.

-صورتك ماثلة أمام عيني لا أرى سواك، ولا تطفئ نار شوقي جميع البحار، طيفك يلاحقني من مكان لآخر، يداعبني ويغازلني يسهل لي كل ممنوع، ويصحو ضميري ليمنعني من الهياج.

قالت البنات والنساء بمرح:

-أهلا بك، كلنا نحبك أنت طيب، وقلبك للضعفاء.

بصراحة حين أراك أسرح في بهاء طلتك، وسحر عينيك، ساعات الليل في بعادك طويلة، وفي قربك وإن طالت قليلة.

قال نسيم بيك لسماح:

-أحسد الماء على سحرك وجمالك، أتنفس عشقك، أهيم حبّاً، وآهاتي تزيد العشق لوعة، أنوثتك تكسر في صمت حياتي.

مابك يا سماح؟ أأنت مريضة؟ لماذا ابتعدت عن الأرض في هذا اليوم.

-كانت ابنتي ليلي مريضة، فقلت لأمي أن تخرج للعمل، وسأبقى أنا بجانب ابنتي.

...يقع على بعد أمتار من الترعة سوق القرية، ويقف فتح الله أمام بائع الفخار يمعن النظر في كل آنية معروضة للبيع ولكنه لا يستطيع الشراء، فقال لنسيم بيك:

-(نريد شراء قلل للمضيفة وأوان للحمام)

ألقى نسيم التحية على بائع الفخار، ثم قال:

-كم ثمن هذه الأواني جميعاً ؟

.قال بائع الفخار في ذهول:

-لماذا تود شراء كل الفخار؟

-من أجل ألا تجلس في الحر، وتذهب لبيتك، أنت متعب

ووجهك أصفر، انظر إلى سعالك المستمر، قم واذهب إلى المستشفى لتتعالج. وعندما يصف الطبيب لك دواء أعطه لفتح الله ليشتريه لك، وتذهب إلى منزلك وترتاح وعندما تشفى تعود للعمل.

أصابت الدهشة فتح الله فقال:

-نأخذ الأواني؟؟!! ماذا نفعل بهذا الكم الهائل.

أعطها للسيدة أم فارس تأخذ منها ما يلزمها في البيت، وتعطي الباقي لمن يحتاجه من الخدم.

الخوف أن تأتي نعيمة وتبيع الفخار لها، وتأتي أنت وتشتريه منها.

فقال البائع:

- (بارك الله فيك ووسع في رزقك يا نسيم بيك)

قال نسيم:

-اترك الفخار عند هنية لتتصرف به.

***

(١٢)

في القلب

... يقابل نسيم بيك حفيظة أمام المشغل تحت ضوء القمر، والكلاب تمر نحوهم، ويسمع للقطط مواء كصوت نساء تتحدث مع بعضها البعض في شجار وعتاب وملام، وسيدات تمر على رأسها البلاصي لتجلب الماء من الترعة، وأخرى على رأسها طبق كبير من النحاس عليه أوان وأطباق صاج، وهي تتجه نحو الترعة لغسلهم، فتقول السيدة حفيظة له بودٍّ:

- (يا ابنى وحبه عينيه، الناس تقول إنك تعشق سماح، مع أن مراتك أم عيالك أجمل منها)

-الجمال جمال الروح، وابنتك عمري، وأحب أن أذهب إلى البيت لأراها، فيفرح قلبي حين أجدها مستيقظة، لكنها نائمة دائماً، ولا تصحو عند دخولي المنزل، والأولي بها أن تكون في انتظاري وأن تكون مهتمة بنظافتها ومظهرها. وأن تلبس قميصاً معطراً.

قالت حفيظة بتعقل وهدوء:

-أشرقت في الشغل طيلة النهار، تتعب في الأعمال المنزلية والخدم ليس لهم وجود.

قال نسيم بيك:

-أرى أن تنام بعد العشاء ساعتين ويكفيها ذلك، أريدها أن تصحو لتسهر معي، القمر في السماء سهران، والنسيم يمر على الشجر، فيضرب له الشجر تعظيم سلام، ويتمايل فرحان، لديها الخدم فلتدع لهم عمل المنزل. قالت حفيظة وكأنها تحدث ابنها الصغير تارة، وكأنها تحدث مسؤول كبير تارة.

-لمَ لا تقول لها، أشعرها أنك تحبها، وتريد منها أن تصحو لك، وأن تهتم بمظهرها وحبها وقربها منك.

قال نسيم بيك بمرارة:

-(غلبت فيها)، اشتريت لها صابوناً معطراً ذا رائحة طيبة وغالية الثمن، وعطر مميز، وإنها كثيرة النسيان، فلا تعرف أين توضع الأشياء في البيت، ولا تعرف طريقها بعد ساعة، عليها أن تعرف كل صغيرة وكبيرة في المنزل. قالت حفيظة بشيء من الغيظ المكبوت.

-أنت تعرف سماح من كلامك، لقد دللت ابنتي فعاشت في يسر ونعيم عمرها كله، وتهتم بنظافتها ومظهرها، كما علمتها أشياء كثيرة أكثر وأكثر وأكثر، ومن الواضح أنك تعشقها، تعشق سماح.

قال نسيم بيك:

-سماح صوتها موسيقا، طلتها فرح، وكلامها بلسم، وحكايات

وقصص، وزهور، وسماح تخدم نفسها، وتعرف كيف تهتم بنظافتها، وأنا عمري ما تزوجت أي امرأة مهما كنت أحبها، أحب بيتي فهو مستقر لي، ولن تشارك إنسانة أولادي في خير بعثه الله لهم، فهو ميراثهم، هو مبلغ أحدده لها فقط.

فقالت حفيظة بمودة:

-لكنك تفتح أبواب القلق في بيتك وتقهر قلب زوجتك أم أولادك.

قال نسيم بيك بحب:

-الحب تسلل إلى قلبي كنور الصباح وسيطر على عقلي ومشاعري وحياتي كلها، أرى الدنيا بعيون الحب، حب وفرح وانتظار وزوجتي زوجتي وأولادي قرة عيني.

تركها وانصرف وكأن العالم حوله زهور وطيور مغردة، وكأن الأرض مفروشة بالحرير، لا مصاعب ولا مشكلات.

...وبالقرب من حفيظة رجل يقوم بتصنيع أقفاص للطيور من أعواد من الخشب الرقيق، فتقول له:

-أريد منك مجموعة أقفاص بحجم صغير للسيدات في مشغل التريكو عندي، تقوم كل واحدة منهن بتربية الكتاكيت والبط في منزلها، وأحب أن أساعدهن، فترفع سعر القفص، سآخذ مجموعة منها، ثم تنزل لي بالسعر، هن مجموعة من البنات والسيدات اللاتي تعمل من أجل أن تأكل.

فقال البائع:

-(من عيني أجهزهم كم يوم وأبعت لك).

قالت حفيظة:

- اصنع بين العود والعود مسافة ضيقة لكيلا تدخل أم عرس القفص وتأكل الكتاكيت، ولكني أرجو أن توفّر في أعواد الخشب، وتصنع القفص ببضعة أعواد بعيدة عن بعضها.

كان البائع طويل القامة ،خفيف الوزن، حسن المنظر، يلف رأسه بعمامة صفراء، وذا وجه مجعد والتجاعيد.

-(رجل في الدنيا ورجل في القبر نروح فين من ربنا، نغش الناس؟؟!! وماذا نقول لربنا يوم الحساب و في قبرنا؟؟)

ويمر أماهم بائع كتاكيت، يحمل قفصاً معلقاً بحبل على كتفه وآخرعلى رأسه.

-(كتاكيت للآنية كتاكيت للتربية)

قالت حفيظة:

-تعال المشغل، فسيداته ستشتري منك(وكله بثوابه)

-(حاضر يا ست)

...بعد شراء البنات في المشغل للكتاكيت، قالوا للسيدة حفيظة:

- نحتاج أقفاصاً صغيرة للكتاكيت.

أجابت:

- خذن علب السمن الفارغة، وافرشنها بالقش، وضعن الكتاكيت فيها.

...مر بائع البيض أمامهم، وهو شاب نحيل يرتدي جلباباً، أبيض البشرة، حسن الملامح، جميل الشكل، وقد مشط شعره بكثير من فازلين، وحمل في يده سلالاً ممتلئة بالبيض (بيض الدواجن البلدي)،فقالت السيدة حفيظة له:

-اقترب لنشتري منك البيض، وكلما أتيت إلى هنا بالبيض فسوف تشتري البنات والسيدات، فقال بائع البيض الذي أعجب بفتاة بيضاء ممتلئة الجسم قليلاً:

-(سأحضر لكم وأجي ماشي على عيني).

...ثم مرت أمامهم سيدة غجرية ترتدي جلباباً أسود فضفاضاً، وترسم وشماً أزرق على ذقنها، وذات وجه مدور جميل، وملامح ماكرة، وعلى رأسها مقطف من الخوص، تقول:

- أشوف البخت.

فقالت الفتاة البيضاء:

- تعالي شوفي بختي وقلة حظي في الزواج.

فقالت حفيظة:

-اخرسي يا نجمة، كلامها نصب وحرام، كانت تعمل لنفسها، فهي نصابة، ومن المفروض أن تدخل هذه السيدة السجن، لا يعلم الغيب إلا الله، ولن يزوجك إلا الله.

جاءت امرأة إلى السيدة حفيظة ترتدي جلباباً قصيراً وبنطالاً من القماش من نوع الجلباب نفسه، وطرحة سوداء على رأسها، و تضفر شعرها ضفيرة قصيرة، فأسرعت وانحنت أمام حفيظة قائلة:

-(الله يستر على ولاياك)

فقالت حفيظة:

- (تعالي في المكتب تعالي وهدئي من روعك)

ودخلت المكتب المتواضع، وجلست كل واحدة من الفتيات أمام عملها المخصص لها، فمنهن من تغزل من بقايا أقاصيص القماش وسادة ذات ألوان مختلفة ومتعددة كالتي وضعت على الكنبة في مكتب السيدة حفيظة ،وأخرى تطرز أغطية الرأس للسيدات بالخرز والترتر، وأخرى تعمل على النول.

فقالت السيدة الملهوفة:

- على الأرض ديون كثيرة، وجاءنا إخطار الدفع أو الحبس والدفع، أمضي لك على سند أمانة، ثم أدفع لك المبلغ أثناء السنة، وأزيد عليه خمسة جنيهات.

غضبت حفيظة لما سمعت، فقالت:

-أأعطيك المبلغ ديناً ثم آخذ زيادة عليه ؟ من قال لك أني أتعامل بالربا؟؟! الربا حرام يا حبيبتي قال تعالي « .....فأذنوا بحرب من الله ورسوله....»

.كانت سنية تقف وهي تسمع السيدة حفيظة:

-يعنى تنتظرين من الله أن يحاربك على الربا؟؟

.مر رجل يسن السكاكين ويصلح بوابير الجاز. فنادته سنية من النافذة قائلة:

- تعال، فشكلك يخيف الأولاد، بنطال عجيب، وبلوفر مقطّع، زيتوني، ولكن لونه اختفى من صدأ البوابير، تعال تعال يا أخي تعال! ربنا يصلح ما بين يديك، سن السكاكين، بوابير من هذه التي تحملها؟

-مزاجك جيد اليوم يا سنية؟!!

قالت حفيظة غاضبة:

- (بسرعة علشان تعمل صحفة السمك وإياك تملا وشها قش وأنت تولعي الفرن وإياك يزيد الملح فيها)

وقالت للسيدة:

-أنا دفعت ما على الأرض من ديون ، واستلمت الورقة مختومة.

.قالت سنية بمرح وخفه روح:

- ابقي بانتظاري مكانك.

ثم قالت:

-يا سيدة حفيظة، حرفة تصنعها الناس، نأتي لها بورقة؛ بأنك سددت دين الأرض، ثم نجعل الختم رطباً على ورقتك ونطبعه على ورقتها، وستمر القصة وسيكون الوضع على ما يرام.

قالت حفيظة:

-أأشترك بما يغضب الله؟!! نستدين لها من الناس، ونسدد دينها، أنا أعطيك المال وإياك أن تستمعي لمثل هذا، وإلا فالسجن مصيرك، فمن يرعى أولادك الصغار؟

فقالت السيدة:

-ابـن خالتـي سـجن بسـبب ديـن الأرض، وأطفالـه يبكـون مـن الجـوع، وزوجتـه أفـكار محتـارة مـن أيـن تـأتي بالمـال لأطفالهـا، ناهيـك عـن المـرض و العتمـة لقلـة الجـاز.

***

(١٣)

محاربة أبو زرع

... يقف مطر أبو زرع في طريق ثريا وفي يدها لفة ملابس مطوية،

-بيعي بيتك لي فأنا أحتاجه، و أبني لك بيتاً في أول البلدة على الطريق يا ثريا، ونتزوج، أنت الآن عند نسيم قشرة موز مالها وجود.

-ابتعد عن طريقي، أكلم السيد نسيم إن ضايقتني مرة أخرى.

-لن يسأل عنك نسيم بيك، وإن قتلتك الآن برصاصة فسيقول: الرصاصة أغلي منها، كلبة وماتت.

...تنام ثريا في منزلها في استقرار بجوار ابنها على ضوء لمبة تضاء بالجاز «كيروسين»، وقد أخفضت شعلتها، استيقظت خائفة حين حاول مطر أن يكسر الباب عليها بقوة ووحشية،

-من؟

-افتحي يا بنت يا ثريا.

أخذت تهرول في حوش بيتها، وطرحتها في يديها، لا تعلم ماذا

تفعل، فهي كمن يجري هارباً من القذائف والصواريخ في ليل كئيب، ثم قالت:

-ابتعد عني يا مطر، وإلا سأصرخ وأجمع عليك خلق الله، ويعرف السيد نسيم، ويأتي لك برجاله.

ضحك مطر ورجاله وسخروا منها، فجرت وأخذت ابنها من السرير، وجذبت إليها سلة كانت موضوعة على دولاب صغير، ووضعت فيها بعضاً من ملابسها في عجالة من أمرها، ثم دخلت الغرفة الأخرى، وأخذت حذاء أسود جلد أرضي، لتهرب من الباب الخلفي للبيت أو من النافذة.

وفجأة يمر نسيم و رجاله ،من المقهى.

-ابتعد عن بيوت النساء يا مطر، وإلا أودعتك في السجن بشهادة الشهود.

-كنت أطمئن عليها.

.أسرع أحد رجال مطر بإطلاق الرصاص على نسيم بيك، وهو يقف بجانب الترعة في ليلة مقمرة، فأصابت الرصاصة كتف(نسيم بيك).

...خرجت ثريا من منزلها بعد أن وضعت ابنها الذي فزع من نومه على الكنبة بهدوء، وأخذت تصرخ وتصرخ، وخلعت عنها عصابة رأسها ووضعتها على الجرح، وقام الرجال بحمل (نسيم بيك) والذهاب به إلى المستشفى.

... استغرق جمعة في النوم أمام باب غرفته على أجوله محشوة بالقش، وقد وضع عليها أجولة فارغة كفراش له، فقد ذهب في

النوم وهو جالس، مسنداً رأسه إلى إطار الباب، وواضعاً على ركبتيه بطانية رمادية، نزلت هنية الدوار بعد أن قضيت صلاة الفجر وهي تدعو الله السلامة لنسيم بيك، وفي يديها لمبة صغيرة تضاء بالجاز، لم يطلع النهار بعد، فكان الجو رطباً، والطيور تغرد على الأشجار حول البيت، تهلل لقدوم الصباح، فأيقظت جمعة برحمة وحنان ثم قالت له: أنمت في الطل والضباب يملأ الدنيا، وسيحجب نور الشمس لمدة؟ ستبرد وتمرض، لقد سحب الناموس دمك الليلة ، استيقظ يا جمعة، اصحى يا بني.

قال هو يضبط عمته على رأسه وملابسه في خجل:

-كنت قلقاً، وحزيناً على نسيم بيك، أنا أعشق نسيم الصباح المحمل بالأمل.

-قم يا بني لتصلي الصبح قبل شروق الشمس، واحلب البقر، وخذهم إلى الحوض ليشربوا، فلقد عبأت ونعيمة ماء دور من البحر طيلة الليل من أجل البهائم، وماء من المرشح من أجل الطهي والشرب ، قم لننظف الدوار.

ثم رفعت يديها للدعاء.

-ربنا يعطيك الصحة، ربنا يشفيك يا نسيم بن حواء وآدم.

الريح باردة لكنها تنعش الروح، ألا تخاف أن يصيبك التهاب رئوي من البرد؟

-أنا أعتبرك كخالتي، (ربنا يطول عمرك يا خالتي هنية).

-ربنا يبارك فيك وترجع إلى أهلك بخير وسلامة.

***

(١٤)

عقدة و...

...أقام نسيم بيك في منزله في المضيفة وقد تماثل للشفاء، وقد مدّ جسده على كنبة مغطاة بقماش أزرق، ووضع عند رأسه في سلة مجملة بزهور بديعة الألوان ومزينة ببعض الأصداف والأحجار الكريمة هاتفاً ،لم يكن الهاتف موجوداً في ذلك الوقت إلا عند بعض التجار والأثرياء في البلدة وكان نسيم واحداً منهم، ويعلوه راديو فيليبس، كما وضعت بعض المفروشات في المضيفة (كنب وكراسي) وهناك جزء آخر منها يتميز بصالون ذهبي. يقف بجوار نسيم رجل نحيل الجسم، وعظام وجهه بارزة يعطيه حقنة عند الحاجة، وبعض من رجاله وأقاربه وأصدقائه.

-ربنا يشفيك، أنت رجل بمعنى الكلمة، تساند الضعيف المظلوم، وتقف بجوار المريض، وتحاول إطعام المسكين وابن السبيل، وتقف في وجه عدوك.

قال آخر:

- قبضت الشرطة على من أطلق الرصاص، وعلى مطر بتهمة أنه قام بتحريضه.

قال نسيم:

-الحمد لله، لا أريد الظلم لأي إنسان، ولكني أكره الخيانة.

...بجوار المضيفة غرفة يتجمع فيها أطفال المنطقة لحفظ القرآن، و تعلو أصواتهم بقراءة سورة المسد، {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)صدق الله العظيم}

مع سيدة شابة في الأربعين من عمرها، حنطية البشرة، خفيفة الوزن، ترتدي خماراً أزرق، وعندما انتهوا من قراءة السورة أذت المعلمة تشرح السورة قائلة:

-أبو لهب أحد أعمام الرسول صلي الله عليه وسلم، وكان هو وزوجته يؤذي النبي محمد، وفي سورة المسد توضيح لما يلقاه أبو لهب من عذاب في نار جهنم هو وزوجته؛ لأنه كان يوافقها على أذية نبينا وهي توافقه على الشر.

قالت السيدة أشرقت:

-خذي هذا المبلغ نظير تحفيظ القرآن للأولاد.

-فأنا أحفظه لوجه الله.

-لك في كل شهر مبلغ من المال كهدية مني لك، وتواظبين على مواعيدك في تحفيظ الأطفال القرآن وأحاديث الرسول.

-بارك الله فيك، إني أحضر أحياناً قبل أن يأتي الأطفال.

...جاء جمعة وقد أشعل النار في الحطب داخل إناء نحاسيّ مسطح أمام المضيفة، فسأله نسيم قائلاً: لمَ تشعل النار ولم يقترب الغروب بعد؟

أجابه:

-الكثير من أصدقائك يحبون القهوة والشاي على نار هادئة أمامهم، وبينما النار متوهجة تتمايل مع الريح الهادئة جاء الكثير من أصدقاء ومعارف نسيم بيك ليطمئنوا على صحته. فقال أحدهم:

-(إلحقني بفنجان قهوة يا جمعة)

فقال جمعة:

-فتح الله خبير في صنع القهوة فسيفعل ذلك بدلاً عني.

قال نسيم بيك:

-لا تتهرب من المسؤولية وترميها على غيرك متحججاً بعدم المعرفة، اصنعها وإن لم تعجبنا فقد تعلمت.

***

(١٥)

جرائم المقهى

...يكره جمعة جلوسه مكوماً في ركن حجرته بين الذكريات والصمت الرهيب، الذي لا يخترقه سوى صوت حمار ينهق لرؤيته لشيطان ما، فيستعيذ جمعة من الشيطان، أوديك يصيح، فيذكر الله؛ لأنه كان يعلم أن هناك ملكاً وراء صياح الديك، يجد نفسه في غرفة أكلت الرطوبة ومطر الشتاء خشب سقفها، وعصف بها حر الصيف، وتزداد جدران الغرفة اتساعاً أمام صغره مع الوحدة، يخيل إليه أنه يصارع الأشباح، أو من يريد الثأر منه، ها قد أتى مختبئاً داخل كميات كبيرة من البرسيم، أو داخل برميل جُلب ليملأ ماء لشرب البهائم، ويجبر نفسه آخر الليل على الاستسلام للنوم أملاً في أن يرى وجه أمه، لقد نفذ تعاليم نعيمة؛ فأطلق لحيته، وقص شاربه، ولم يضع على رأسه شيئاً ومشط شعره، ثم وضع التاني حول رأسه ووجهه، وذهب إلى المقهى وهو يلتفت حوله، وعند وصوله طلب ينسون ثم طلب كوباً من الشاي الثقيل.

-أنت من الصعيد؟

-لالا أنا من هنا؟

-من هنا؟ من أين؟ لهجتك صعيدية؟ لاتخف، أتهرب من الثأر؟

.وقال آخر وقد غطى وجهه شعر ونمش_ وكأنه قد خرج للتو من جرن قش، أو كان يتمرغ وسط التبن-.

-لماذا القتل؟ القانون موجود، القتل دمار للعائلتين.

وتقهقه آخر، ولكنه توقف عن الضحك- كأنه لم يعرف الضحك قط - عندما لمح (نسيم بيك) يدخل عليهم ،فنظر إليهم ثم قال:

- لماذا خرستم؟

أجاب أحدهم:

- (جمعة يتخفى ويكذب عليه ويقول أنه من هنا)

-جمعة أراجوز، تضحك أنت وهو.. عليه، فلينشغل كل واحد منكم في نفسه وعمله، وليدع الضعفاء لهمومهم، فلهم الله ليدافع عنهم، وابحثوا عن حلول لمشكلاتكم، ودعوا خلق الله وشؤونهم، وتسلوا بهمومكم وأحزانكم.

-لا نحن نضحك معه لا عليه، نسلي أنفسنا.

-تتسلي في شيء لا يغضب الله، يعني، هل ستضحك إن كان أمامك الآن الحاج عبد الغني أبو سراج بيك، وصدر منه شيء لم يعجبك؟ أترضى أن يضحك الناس على ابنك الذي قد ابتلي بمرض لا قدر الله؟؟؟

-عليك أن تعامل الناس كما تحب أن تُعامل.

- الجلسة نميمة على أحد أو سخرية من شخص مسكين، يعني إن كان هناك من يجلس معك وأنت تتكلم بسوء على ثم ذهب وأخبره ما قلته عنه، ما موقفك من ذلك الأمر؟ والأهم من ذلك أن تخاف الله فيه.

***

(١٦)

حلم جمعة

يقف جمعة في انتظار عودة نسيم بيك من المقهى، ولكن الانتظار طال، و ولا شيء يتحرك حوله في هدوء الليل أو يحدث صوتاً إلا حفيف ورق الشجر حين مرور الرياح الخفيفة، وتمر الدقائق ساعات، ولا يمر أمامه إلا كلب أو قطه أو بن عرس يجرى من مكان لآخر،وأخيرا جاء نسيم بيك يمشى على مهل وفي يده خيرزانه،وكشاف نور يضيء أمامه الطريق بحجر بطاريهأمام منزل نسيم بيك وهو عائدا من سهرته،يحدثه جمعة بوجل

-أريد الزواج من ثريا

-ثريا،عندك نعيمة،تزوج منها، وسأتكفل بمصاريف الزواج، أو نختار لك أي عروس ،أنت طيلة النهار والليل في الدوار، ولا ترى أحد.

-أحب ثريا، انشغلت بها.

فقال نسيم بيك بحزم ومكر:

-وثريا أتبادلك الحب؟

فقال جمعة وهو يبرئ ثريا:

-الحق لا، لكني أحبها، أو لأني أراها في الدوار، ونعيمة غجرية وصعبة وعنيدة.

فقال نسيم بيك:

-نعيمة خيرٌ لك منها، تستقر وتبني أسرة.

فقال جمعة بغضب:

- لايمكن أن أحيا وأعيش بعيداً عن أهلي، وعن الناس الذين تربيت بينهم.

فقال نسيم بيك:

-استمع للمذياع الذي أتيت لك به، واترك الباقي لله، وعلى عبد الله نسيم،

-أشعر براحة جسدية وروحية عند سماع القرآن، أو عندما أستمع لأحد مشايخ الدين.

***

(١٧)

ثريا

...يذهب نسيم بيك إلى منزل ثريا وهو يكظم غيظه، كان ابنها نائماً، واضعاً حقيبة المدرسة بجواره على منضدة بجوار السرير، فدخل نسيم حجرة الضيوف التي يوجد فيها منضدة كبيرة عليها مفرش في وسط الغرفة، وقد وضعت ثريا سلة بها شغل الإبرة فهي تصنع شيئاً من التريكو لابنها، حول المنضدة ثلاث كنب بلدية مفروشة فرشاً أحمر اللون، و فرشت أرضية البيت بحصر ذات ألوان بهيجة.

فقال نسيم وهو يتفرس وجهها-(أنت قاعدة عندي في البيت وتعاكسين جمعة)

فقالت ثريا وعينيها تشع نوراً وحباً (يا خبر عمري ولا يكحل عيني مليون راجل مثل جمعة، وأنت تعرف مين ساكن في قلبي)

-ماهي أخبارك وابنك إليتيم؟ اعتني به، لكنك تنشغلين بمغازلة الرجال.

-دعت على نفسها ثم قالت: أصاب بالعمى إن أعجبني أحد غيرك.

-أنت تلبسين التايير اللامع الأخضر الرائع الجمال، فبهر حسنك وجمالك عيون الكل، ولقد كنت في خطبة لا تستحق أن تذهبي لها من الأساس.

-من قال لك؟ عيوني كثيرة، وأنا لمحتك، فبهرت بقوامك الجميل ومنظرك الرقيق، أراك مازلت ترتدين ملابسك مع إن الحفلة انفضت من العشاء.

-عرفت أنك ستأتي، فبقيت في انتظارك طيلة هذه الساعات، لو كنت أحب غيرك، لعرفت زوجتك بعلاقتنا حتى أنهيها، فأنا أحبك وأنت لا....، فأنت مشغول بسماح.

-سماح مسكينة وشابة فقيرة وعندها أطفال كثيرون.

-على فكرة هو شخص أنت تعرفه، يموت فيَّ، وليس مطر الرجل الغبي فقط ، فهناك من له مكانة، وسيأخذني إلى الحج، فهو يتمني إشارة مني.

حاول نسيم ضبط النفس، ثم قال:

- وحدثك عن حبه وما ينوى فعله أيضاً؟

هزت رأسها وقالت بثقة:

-لالا بعث مرسالاً فطردته.

-أنا تزوجتك في السر، ولكني لا أنكر زواجنا إن سئلت، فأنا أخاف الله، أهلك و شيخ البلد يعلمون بزواجك مني، وأنا أعرف ما أفعله وكيف أردُّ عليه.

.ترقرقت الدموع في عين ثريا ورمقته بنظرة خوف ثم قالت:

-لا أريد أن أسبب لك أي مشكلات، وحياة حبي لك ابتعد عن طريق أي رجل مجرم، أخشى أن يصيبك برصاصة غادرة في مكان ما.

-هي الدنيا فوضى، والله سيكشف الحقيقة.

-تعال واستمع لموسيقى جميلة في الراديو، والإذاعة تشغل الأغاني باستمرار، وانسيد الدنيا ومتاعبها.

.أسند نسيم بيك ظهره للمسند وهو يجلس على الكنبة، ويمد رجليه أمامه على الأرض، ويضعها فوق بعض.

-أين أنت ذاهبة:

-أعطي الكلب نافذ خبزاً، من المؤكد أنه أمام البيت ينتظر خروجك.

دخل ابنها الصغير وقال لنسيم بيك:

-انتظر قليلاً لا تذهب لقد اشتريت لك هدية، سأذهب إلى غرفتي أحضرها لك. قال نسيم ضاحكاً:

-يقول رسولنا الكريم: «لَو دُعِيتُ إلى كُرَاعٍ لَأَجَبتُ، وَلَو أُهْدِيَ إلى كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»، والكراع هو ساق الغنم العاري من اللحم

فقالت ثريا:

-ولدي يحبك كثيراً، فهو مشغول بك طيلة الوقت، ولا ينام في بعض الأيام شوقاً لك.

فجاء ابنها وقال وهو يخبئ الهدية وراء ظهره:

- أغمض عينيك.

فأغمض نسيم عينيه، افتحها، أعطاه الولد مسبحة موضوعة في ورق كروشيه جميل الألوان.

.فقالت ثريا:

-مسبحة؟؟!! لم أفكر فيها، كيف خطرت على بالك؟

-اشتريتها من رجل في الطريق وأنا ذاهب إلى مدرستي، أدخر نقودي لوقت الحاجة.

قبله نسيم ثم قال له:

- بارك الله فيك وهداك لما يحب الله ويرضى، هديتك مقبولة.

-كلب عجيب هو وفتح الله يلاحقني من مكان لآخر.

.ويستيقظ ابنها الصغير متجهاً إلى الحمام ليلاً، فيجد والدته في غرفة نومها ترتدي ملابس جميلة، بعد أن استحمت وتطهرت من الجنابة. فنادته قائلة:

.اذهب للنوم يا حبيبي.

- عمي نسيم هنا.

-نعم هو نائم أمامك على السرير، اذهب للنوم ،ولا تصدر صوتاً أخشى أن يوقظه صوتك.

فقال نسيم: دعيه، تعال يا بني تعال يا حبيب ونم بقربي.

فقالت له ثريا:

-قم يا نسيم لتستحم، أحضرت لك الماء إلى الغرفة كيلا تبرد، لقد بدأت الرطوبة نحن في أواخر الخريف.

***

(١٨)

دموع أشرقت

...تمضي السيدة أشرقت الليل في دموع وعذاب، وهي تعلم أن زوجها عند عشيقته في سرور، وقلب سماح يكتسي خضرة دائمة من الانشراح. فجأة فُتح الباب، وجاء نسيم بيك.

-أنتظرك طيلة الليل بين الأمل في رؤياك، وعذاب الغيرة والظنون.

-أنت الأصل ونور العين.

-تعشق التقاليد وتذوبان ببعضكما مثل القلب ودقاته، تحل الأمور بحكمة، وتنشر الحق بين الضعفاء، من أذاق الأغنياء الذل، أشعر بالراحة عندما أراك تمضي السهرة في المضيفة، ثم تصعد إلى هنا دون أن تخرج أبداً مع أنك دائم التجاهل لحقوقي.

-لا أتجاهل خقوقك أبداً،أنت في عيني وقلبي.

..تمددت على السرير بأنوثة وجمال وجاذبية، ولكن نسيم لم يرها، فهو منهك من سهرته عند ثريا.

...في الصباح تضع نعيمة الفطور أمام (نسيم بيك)، وهو عبارة بعض السمك المعلب.

- أجعلت من دوّار نسيم بيك ملتقى للعشاق؟

أنا؟؟؟ (بعد الشر) لاعشت ولا كنت إذا قمت بشيء يؤذي سمعتك يا بيك.

-تغازلين جمعة؟

ارتجفت، وتغير لون وجهها إلى ألوان عدة، ضبطت ملابسها تارة، و كادت تقطع أزرار جلبابها لارتباكها تارة أخرى، ثم قالت:

مثل شمس تأتي خيوطها على كل ما اتضح وظهر حولها-أقال لك أنه يريدني زوجاً؟

-هو يريد أن يتزوجك، الله يسترك، لماذا قمت بتحريض جمعة على الخروج من الدوّار؟ إذا قتل من أجل الثأر فأنت السبب في ذلك.

-هذه آخر مرة تنفذين شيئاً من عقلك، لا تفعلي شيئاً كهذا إلا بعد استشارة من هو أكثر معرفة منك، ممنوع النزول إلى الدوّار بعد اليوم.

.سعدت نعيمة لعدم طرد نسيم بيك لها، وتنفست الصعداء،ثم قالت بصوت يشبهه ألحان الطيور الهادئة: أوامرك على رأسي.

... قام جمعة من النوم سعيداً فرحاً، يمتلئ وجهه بالدم والحيوية والنشاط، ويلقي نظرة على كل ركن في الدوّار، يريد رؤية نعيمة.

-قد تعلق قلبي بك يا نعيمة، أين أنت يا حظي، كل يوم أمامي ولا أهتم بها، واليوم استيقظت وهي جالسة و متربعة في عيني ولكني لا أراها في الدوّار.

.و تنادي نعيمة جمعة بهمس رقيق لا يُسمع، من نافذة المطبخ، فالتفت إليها قائلاً:

-تعالي لأقول لك كلاماً حلواً ينبع من قلبي.

-سيدي منعني من النزول إلى الدوّار.

-لالا تخافي، لن يراك أحد.

.. خرجت السيدة أشرقت للذهاب إلى والدتها.

-نعيمة، نظفي غرفة نومي جيداً، والمنزل أيضاً، ولا تفتحي الباب لأحد في غيابي ،لا أثق إلا بك.

-(حاضر من عيني)

ارتدت نعيمة ملابس السيدة أشرقت أثناء ترتيب الغرفة، ووقفت أمام المرايا ووضعت بعضاً من المكياج، ونظرت لنفسها بإعجاب وقالت:

-عندك الملابس والخير وتعيشين في هم؟؟!! كم أنا جميلة !!

فجأة جاء نسيم. فقالت له:

-ألم تذهب إلى الأرض؟

-لا خذي ملابسك والبسي في غرفتك، وفتح خزنة نقوده الموضوعة داخل خزانه الملابس، ثم وضع مبلغاً من المال.

.ثم قال وهو يضحك بينه وبين نفسه:

-يا نعيمة، هذه ملابس أم فارس، سأطلب منها أن تتركها لك، فأرجو أل يتكرر الموضوع مرة ثانية، أم فارس تركتك في البيت لأنها تثق بك، وكل شيء أصبح أمانة في رقبتك ،أمانة يا غبية.

قالت نعيمة بخوف ورجاء

-لن أكررها مرة أخرى فلا تقل لها.

دخلت عليها هنية، يملؤها الغيظ، فلوت يد نعيمة، وقالت لها بغضب:

-إياك أن تكرري هذا العمل مرة أخرى، وإلا فسأقول للسيدة أشرقت.

قالت نعيمة:

-لو أردت هذه الملابس قلت للسيدة أشرقت، وستعطيهم لي أو تشتري لي مثلهم، لكني لا أرتاح إلا في ملابسي، (الله يريح بالنا)

فقالت هنية:

-هي الدنيا فيها راحة؟ الحمد لله على كل حال، يجب أن يكون لك أحبة، تجدينهم وقت شدتك، فيعانقونك بحنان عندما تشتكين لهم همك.

***

(١٩)

ثأر

...شخص متخفٍ لفَّ رأسه ووجهه بملابسه، وأخرج بندقيته التي كان يخفيها في جوال وصوبها باتجاه جمعة، و أطلق رصاصة أحدثت دوياً هائلاً عند المغرب، وجاء فتح الله من الأرض يجلس على عربة كاروا يجرها حصان، والعربة محملة ببرسيم مبلل بماء المطر، وأوقفها أمام باب الدوار، لا يستطيع الدخول فقد وقع جمعة أمام الباب، فجرى فتح الله وراء المجرم، وخرج الناس من بيوتهم ووقف المارة ليروا ماذا حدث، والمجرم يجري أمام الناس دون أن يخشى أحداً ويسرع بالعدو وهو يهدد بالقتل كل من يريد اللحاق به، نظر فتح الله إليه وأعمل تفكيره، فدخل شارعاً آخر يصل من خلاله إلى المحطة ولحق به، وأمسكه من يديه.

وقال فتح الله للناس : قاتل ومعه سلاح القتل.

واجتمع الناس حوله وكثر عددهم فجأة، ساعد الكل فتح الله في الإمساك بالرجل الذي تحرك وسافر من مكان إلى مكان ونيته السوء، ولم يفكر أبداً في أنه من الممكن أنه يلفظ أنفاسه في لحظة.

..يقول نسيم بيك لجمعة:

-قم يا جمعة، أنت بخير الرصاصة أصابت الحائط.

قالت نعيمة في لهفه وخوف:

-قم يا جمعة سأصنع لك الماء بالسكر، قم قدر الله ولطف بك وبنا.

قال جمعة برعب وفزع:

-أصنعت لي شيئاً ورفضته؟ أعطني ماءً فقد جف حلقي، لقد انتهيت، لم أعد أنفع لشيء، لقد قضى الرعب والخوف على.

ووضعت هنية له مقعداً خشبياً ليجلس عليه: وقالت السيدة أشرقت له:

-لا تخف، لماذا خرجت أصلا أمام باب الدوار وأنت لا تحب الخروج؟؟

..قال جمعة

- قلت أساعد فتح الله في فتح باب الدوار من أجل أن يدخل بالعربة، فكان الحظ في انتظاري.

وبدأت هنية ونعيمة تأخذان البرسيم من العربة وتضعانه في غرفة بجوار غرفة جمعة، فقال نسيم بيك لهما.

-اتركا هذا العمل للرجال .

.ودخل فتح الله قائلاً: المجرم عند العمدة، وحل المهر من

العربه،وأخـذ جمعـة المهـر إلى الاسـتطبل، وأدخـل فتـح الله العربـة إلى بـاب الغرفـة، وأمالهـا إلى الخلـف ناحيـة الغرفـة حتـى يسـقط البرسـيم مـن عليهـا وهـو يقـول:

-(يا لطيف يارب هات العواقب سليمة)

***

(٢٠)

غطاء الغلابة

...سماح تجلس في غرفة بيتها، على أجولة ممزقة قديمة مفروشة على الأرض، ولكنها نظيفة، وأطفالها نائمين على إياس خوص على الأرض، مغطاة بأجولة ممزقة قديمة، وتجلس بجوارهم أمها، وقد زرع الشقاء والعناء أخاديد في وجهها، ترتدي ملابس غامقة، وطرحة سوداء حول وجهها، وتقلب السمك على صاجة من الصفيح، حجمها عشرون سم في عشرين سم، وتقلبها بعود من الحطب على وابور جاز نحاسي، وتقوم سماح بحياكة القماش راضية بالذي قسم لها، فهي تشبه الشمس وهي تداعب الزهور والأشجار وقت الظهيرة، ترقى بالجمال والرقة، وكأن بيتها واحة زهور تفوح بأجمل عبير، وذات قلب للعشق أسير، و تتحدث بسرور وبهجة، وهي صامتة هادئة ورقيقة.

-شيء يبعث الدفء للأولاد في الشتاء، أنا في البرد ألبس الثياب الخارجية دون الداخلية، كيف لي أن أشتريها ونحن لا نملك ما نأكل

به؟ فلا أحد يزكي بمال أو طعام على الفقراء على الرغم مما يمتلكه من أراضٍ وثروة.

قالت سماح بنفس راضية:

-الحمد لله على الستر، الأولاد ينامون جوعى كل ليلة، أحاول أن أجمع الملابس القديمة وأخيطها من أجل التدفئة، يارب وسّع رزقنا، وأبعد عنا الخسائر.

-لو أن هناك من يعطينا بطانيه قديمة مع اللحاف.

-الناس لايهون شيء عليها ،الملابس القديمة يقدمونها لنا مرغمين.

- اشترى نسيم القماش للخدم الموجودين عنده.

-عندما يعطيني قماشاً تحيكين لك جلباباً يا أمي، وقميصاً تحت ملابسك، لقد تعذبت من البرد كثيراً السنة التي مضت.

-لا والله فبناتك هم الأولي بالملابس الجديدة لتقيهم من البرد.

تنهدت سماح في حرقة وشوق.

-افتحي يا سماح النافذة لتخرج رائحة السمك المشوي، فرائحة الجاز المحروق تكاد تخنق الأولاد، كان من المفروض أن أشوي السمك في الحوش، ولكني رأيت أن أقوم بتدفئتهم، لكني أخطأت، كان يجب أن أفرض أن يهب الوابور في البيت فيحرقنا.

وأسرعت سماح بفتح النافذة وهي تقول:

-نعيش في شقاء، لا نعرف طعم الفاكهة، والمعيشة مر في مر،

والمش على السطح اشتكى منّا، والأولاد تمرض بالحمى أو السعال، ولا نستطيع معالجتهم إلا بمشروب نضحك به عليهم، وأكثر ما نستطيع فعله هو إعطاؤهم كبسولة مضاد حيوي، تخلص على صحتهم وعافيتهم، وتضعفهم أكثر.

..سمعت سماح طرق خفيف على نافذة بيتها المبني من الطوب اللبن.

فقالت أمها في كلمات مثل رائحة البحر المالحة، وهجير الشمس الحارقة.

-يا بنيتي من المستحيل أن يجعلك نسيم زوجة له، ستأكل الناس وجهه.

شعرت سماح بكلمات أمها تجلد قلبها بسوط من نار، فقد علمت أنها لا تريد لها الخبز في الهوان.

.ردت سماح بوجل:

-من.. من؟

-أنا نسيم، يا أجمل الزهور، جمالك وعبيرك يفوق كل الورود، كنت خائف من أن تكوني خارج بيتك هنا أو هناك.

..قامت سماح مسرعة نحو باب بيتها وفتحته.

-خير خير

-خير.. اشتقت لك قلت في نفسي: يجب أن أراك، وتصنعين لنا الشراب، فأنا حين أراك تنير الشمس قلبي.

فقالت سماح:

-لكن الله يرانا، كما أخشى لوم الناس لنا.

-ولا مخلوق يستطيع أن يتحدث عنك بسوء وأنا في هذه الدنيا، من يستطيع أن يسوئ سمعتك يا أعز الناس؟

دخل بيتها، وهو يقول:

-تعالي يا طلعت ،طلعت خإلى وأنت يا خير الله،

دخلوا الصالة الفارغة إلا من منضدة مغطاة بقماش نظيف، كستارة تخبئ الأواني النظيفة الموضوعة أسفلها، وعلى المنضدة وابور جاز، وبجوار المنضدة الكبيرة منضدة أخرى صغيرة عليها زجاجات صغيرة من التوابل والسكر والشاي والزيت، وبجوارها صينية من الألمونيوم، تحوي ثلاث قلل فخارية مليئة بالماء، ومغطاة بقماشة صغيرة نظيفة. ووضع في أسفلها آنية كبيرة تحوي ماء نظيفاً للطهو.

.وفتحت لهم باب غرفة داخلها سرير حديد بأعمدة، وعليه ملاءة بيضاء، وأمامه كنبة مبنية من الطوب اللبن ومغطاة بقماش مرقّع ونظيف.

قالت سماح بدهشة:

-ماذا حدث؟ والدتي هنا والأولاد.

قال خالها:

-خيراً إن شاء الله، أنت إنسانة مستقيمة غير حقودة و سيرضيك الله.

-خإلى تفضل، سأعمل لكم الشاي حالاً.

-(اعمل شربات.. شربات)، يا أجمل من الورد والزهر، يا ونس حياتي القادمة بسحر كلامك الرقيق، وحنانك الذي يفيض على الكل من غير ضيق.

-كلام حلو، (لكن شربات؟؟!!!)

فقال نسيم بيك:

-سفسطائية تحب الجدال والنقاش، أنا من الآخر سأتزوجك زواجاً عرفياً، والشهود موجودون، ولك ما تريدين، يا صاحبة القلب الصافي الأبيض، يا حب قلبي.

-لا أريد إلا قربك لترتاح عيناي من الطيران وراك، ويرتاح قلبي من الركض في صحاري العشق والعذاب، وأرتاح من النظر إلى مكان في الأرض باحثة عنك ومراقبة لتصرفاتك ومتنهدة في عذاب.

***

(٢١)

جمعة

...في بيت نعيمة يقوم الرجل الذي يقف على سلم خشبي ويعلق بالسلم دلو مليء بالجير والماء وقليل من الملح، وفي يده فرشاة، بدهن الحائط في غرفة النوم، وقد تلطخ سرواله وقميصه بالجير الأبيض. فتقول نعيمة له:

إياك أن يكون البياض ليومين فقط ومن ثم يقع على الأرض.

فقال الشاب:

- المسألة مسألة ضمير، لا تخافي، هل سمعتي عن بياضي أنه وقع بعد يومين؟

أجابت:

- لقد وكلتك بالأمر لسيرتك وسمعتك العطرة، ولكني أخاف أن تستهتر بي.

قال:

- أستهتر بعملي؟! وأين أذهب من الله؟ وكيف سأستطيع النوم

ولقد ظلمت في عملي؟ أنا أضمن لك نفسي، اصنعي لي كوباً من الشاي الخفيف، قلبي مقطوع من أكل الخبز والبصل.

فقالت نعيمة:

– ما رأيك أن يكون غداؤك عندي اليوم؟ سأقدم لك الكشري؛ عدس وبصل أخضر وأصنع لك الليمون.

–(ربنا يجبر خاطرك)، (وبعد الليمون شاي أصلا لما أشرب الليمون بحس إني عايز أنام)

–سأصنع لك كوباً من الشاي ليوقظك.

...نسيم بيك يحضر لفرح نعيمة وجمعة، ويذهب لمحل الموبيليا مع جمعة ونعيمة وأشرقت، وتجلس السيدة أشرقت على الكرسي الخيزران، ويحضر لهم صاحب المحل الخفيف الوزن، القصير القامة، أكواباً من الشاي من القهوة التي بجانب المحل، ويقف نسيم بيك يرى خزانة مكونة من بابين، ويحوي كل باب رفاً في المنتصف، وآخر لتعليق الملابس.

فقالت نعيمة:

–ملابس؟ يا حسرة....ماذا نفعل بالخزانة؟ أنضع فيها الخبز والمخلل؟؟

فقالت أشرقت بمودة: تعالي لنشتري الملابس من محل الملابس الذي بجانبنا.

وقال نسيم:

-اذهب يا جمعة وأحضر عربية مناسبه لحمل الخزانة والسرير وبقية الأثاث لبيت نعيمة، أعطه المفتاح يا نعيمة. فقالت نعيمة:

- لا يأخذ مفتاحي مخلوق، ولا آمن لأحد على بيتي.

فقالت أشرقت:

- معك حق، ولكننا نعلم أن أهلك في بيتك ينتظرون الأثاث، لا تقلق يا أبا فارس، تعالي يا نعيمة.

فقال جمعة:

-دعواتك يا أمي بالستر والفلاح.

...ذهبت السيدة أشرقت إلى محل الأقمشة، وقالت لصاحبه؛ الطويل القامة، وأبيض البشرة، وذو عيون خضراء، وكبير في السن قليلاً ولكنه ممتع في حديثه.

- نريد رؤية قماش للنوم، نعيمة عروس، فرحها في الأيام القليلة القادمة.

فقال البائع:

-مبارك، (ربنا يتمم بخير) ما رأيك بقماش الساتان؟

.وتناول من الرفوف ثلاثة أثواب من قماش الستا ن، وهو يقول من يا ترى العريس يا بنت يا نعيمة؟

أجابت نعيمة:

- السيد جمعة يا عمي مصباح ، وهو يعمل عند السيد نسيم في الدوار.

فقالت أشرقت:

-أعطنا مترين من كل لون؛ البني والأحمر.

قالت نعيمة:

-اللون البني يجعل وجهي أزرق لا أريده.

فقالت أشرقت بثقة:

-لون جميل مع قليل من المكياج سيكون رقيقاً.

ثم اتجهت إلى البائع قائلة:

-أعطني قماشاً لبيت مشجر، فستاناً وعدة قمصان بيتية. وأسرع مازال أمامنا الكثير من الأشغال، كالذهاب إلى محل الأحذية والألمنيوم.

فقالت نعيمة: ستشتري لي حذاء؟

فقالت أشرقت:

-كل طلبات العروسة هدية مني لك، قلت لك ذلك من قبل.

...في دوار نسيم بيك الذبائح على الأرض من الحمام والإوز والبط والدجاج والماء في إناء كبير على الكانون، ووابور الجاز عليه اللبن يغلي، تقول السيدة هنية:

- عليك يا ثريا عمل المهلبية، ضعيها في أكثر من صينية لتكفي الذين سيحضرون الفرح، وأنت يا نجمة تقومين بعمل المعكرونة بصلصة لذيذة، أنت ماهرة في طبخ المعكرونة، مع عمل إناء شربات آخر، وعليك أيضاً الحمام وأكل العروسين، وأخذه قبل المغرب لبيت العروس أنت بنفسك يا ثريا.

قالت ثريا:

-حاضر من عيني، أخدم نعيمة برموش عيني.

.وأنت يا سنية والبنت مزاج الكسولة ونبيلة عليكن حالاً تنظيف الذبائح وغسلها، وأنا سأطهوها، من هي الماهرة بعمل الأرز بالشعرية؟

فقالت سنية:

-أنا أنا ماهرة في صنعه، وعلى البطاطس المحمرة وبصلصة لذيذة، وستساعدني البنات في تقشير البطاطس.

قالت هنية:

- شاطره يا سنية، وأنت يا نبيلة عليك طبخ اللوبيا سمعت أنك ماهرة في طبخها؟

ردت ثريا بشيء من الغيرة من نبيلة الجميلة:

-(هي اللوبيا فيها طهي ايه عجايب، آه ياني لو نسيم بيك شافك)

فقالت السيدة حفيظة وهي تنزل من السلم وتنظر لثريا بغيظ:

- الطبخ فن ونفس، (هل كل اللي تنول منالها وتطوله في يديها تبقى أتقنت اللعبة لكل حاجه فن واحترام حتى تتقنها وتنجح فيها للأبد).

ردت عليها نجمة:

-الموضوع نفس،

-نفس مدعم بذكر الله والخبرة والسؤال عن ما لاتعرفينه.

قالت أشرقت التي كانت تقف وراء والدتها على السلم:

-تسبيك صلصة الطماطم على النار جيد جداً حتى ترى الزيت والسمن يجري على وجه الصلصة والصلصة نشفت في الإناء، لكن إياك أن تحرقيها، لو حرقت شعرة من البصل أو الصلصة، لأصبح مذاقها سيء. بسرعة يا بنات علينا أن ننتهي بسرعة.

فقالت نجمة:

- هي يعني نعيمة بنت بنوت؟؟ لماذا نفعل لها كل هذا؟

فقالت أشرقت:

-ماذا فعلنا، طعام للأحبة، وكان من المفترض أن تجدد أثاثها من سنين، وآن الأوان لذلك.

وضع على المنضدة ثلاث صوانٍ من المهلبية ذات اللون الأبيض والأصفر والأحمر. كما وضع على منضدة أخرى البطاطس واللوبيا والشعرية والطماطم، والتفتت أشرقت وقالت:

-يا نجمة اذهبي لتنادي فارس، فقد ذهب مع الأولاد ليلعب الكرة، تلك الكرة التي صنعها الأولاد من الجوارب، على الرغم من أن والده اشترى له أكثر من واحدة، ولكنها تقع في البحر وهم يلعبون بها، لقد حذرته ألا يلعب عند البحر لأني أخاف عليهم الغرق وهم يلهثون وراء الكرة.

فقالت حفيظة:

-(يا شيخة حسني ألفاظك، ربنا يبعد عنا البلاء ويسترنا).

ثم التفتت إلى البنات والنساء وقالت:

- لقد استعملتن حنة العريس والعروس، فوضعتنها على إليدين والرجلين، وماذا أيضاً؟

ضحكت النساء وقالت هنية:

- لقد مسحوا أجسادهم مع العروس وكأنها بركة.

فقالت سنية:

-نريد أن نفرح ونتسلى قليلاً فننسيد غلب الدنيا.

جلست حفيظة على كرسي من خشب وبجانبها صينية كبيرة من الكوسا تناولتها وأمسكت السكين لتقشرها.

...أمام بيت نعيمة المتواضع، أعطي مبلغ من المال إلى جمعة.

-أنت حرّ لتعمل مشروعاً بالمبلغ، أو تعمل في أي مكان ترتاح فيه شرط أن يكون آمن لك.

-نفسي أقعد على البحر وأرى الناس، مللت من الحبس، وليس من الخدمة عندكم، أشتري خضاراً وأصنع عشة على البحر.

-ربنا يرزقك وتكون عروستك وجه خير عليك، تصلي ركعتين لتكونا خيراً لبعضكما

ويأتي أناس من الصعيد ليبحثوا عن جمعة، فيلمحه أخوه عوني

-يا جبل.

فقال جمعة بفرحة وهو يضم أخيه لصدره-عوني

.واحتضـن كل منهـما الآخـر، أبـشرك لقـد وافـق عويـس عـلى الصلـح.

-زواجي من شابة طيبة، أعرفك(نسيم بيك).

- أعرفـه لقـد أتـى لنـا مـن مركـز فرشـوط، وسـعى أن تكـون في أمـان.

.واحتضن جمعة (نسيم بيك).

...وتكـرر ذهـاب نسـيم إلى بيـت سـماح زوجتـه ليـلاً في الظـلام، وعلـم بالـزواج الكثـير مـن الناس...ونسـيم يجلـس يـأكل فتقـول لـه سـماح.

-أريـد يـا نسـيم عمـل طـوب بلـدي محـروق طـوب أحمـر، مـن أجـل بنـاء البيـت بالطـوب الأحمـر.

-بسيطة أنا أعمل لك اللازم، (ولا تشيل هم)

-لقد ادخرت مبلغاً من المال، تأخذه للطوب.

خـذه حتـى أسـتريح، أعلـم أنـك تحـب أن تجمـل نفسـك بالتقـرب إلى.

***

(٢٢)

شارع الأحبة

صوت زقزقة العصافير يأخذك إلى عالم الخيال الشفاف، شمس مشرقة تنير الكون برقة وعفاف، وأناس أبرياء يسعون إلى رزقهم في كد وعناء، ويطلبون من الله الستار أن يبعد عنهم شر اليوم باستمرار، والبعض يقول:

- يا هادي يا رزاق

...وفي مشغل التطريز تقف نعيمة مع السيدة حفيظة فتقول:

-لقد بعثتني لك السيدة أشرقت، السمن البلدي والقشدة للبنات في المشغل.

قالت حفيظة في مرح وسرور:

-البنات أصبن بالعمى من كثرة التطريز وقلة الغذاء الصحي، هاهو الجبن والشاي والخبز.

...أتى جمعة أمام مشغل السيدة حفيظة،وقال:

-يا نعيمة أين أنت؟ لقد مررت أمام الدوار مسرعة مثل البرق، لقد قلقت عليك، لم تقفي للكلام معي.

-كنت في طلب للسيدة أشرقت.

...أراد جمعة بعد زواجه من نعيمة بناء بيتها وأخذه بحجة أنه لا يستطيع أن يقيم في بيت امرأة.

-لا ياجمعة أنت فوق رأسي لكني لا أستطيع إعطاءك البيت فهو ميراثي من أهلي، وهو عبارة عن غرفة وحمام، وهذا الحوش الصغير، لابد لبناتي من سكن، ولقد تعلمت بعد طلاقي من زوجي الأول أنه لابد لي من سكن يأويني وبناتي فالإيجار مرير.

- نجمع مدخراتنا نحن الاثنين، ثم أبني لك بيتاً ويكون مناصفة بيننا.

-افرض أني مرضت، أو أنك تزوجت من امرأة أخرى، تدخلها بيتي؟؟ لا والله.

-نسيم بيك هاجر إلى القاهرة من بعد الفخاخ التي وقع بها من الراقصات اللاتي تعرف عليهن، هناك حكى لي كثيراً، ومن الممكن أن أشجعه على السفر، وفي المدة التي يسافر فيها، تكون أمور العمل قد تحسنت، فأدخر الكثير من المال.

- تصلي حرام أنت.

-الكفاح حرام، والحلم حرام، مستحيل أن آخذ حق أو مال غيري، من الممكن أن أبيع لبن المواشي دون أن أعطيهم ثمنه، وأعلم أنه حرام، لكنه عمل سأستفيد منه لا ضرر ولا ضرار.

-لكن بيتي لالالا.

- مـن الممكـن أن أشـتري أرضـاً لبنـاء قطعـة صغـيرة، وأبنيهـا. يصعب نسيم بيك على، فقد كانت الراقصات تأخذ أمواله لرجال تعرفها.

-يعرف نساء كثيرة ليسد عجز إحساسه بالضياع، ولو اهتم بمصالح الضعفاء لكسب.

-كيف تكسب؟ كيف من وراء سفر نسيم بيك؟

قال وهو يضبط القبعة على رأسه:

-أنا أبيع المواشي، ونسيم بيك متساهل معي، وأنا وحظي ومهارتي في البيع، لو قال لي في الهاتف بع بمئة، فبعت بمئة وعشرين، فسآخذ العشرين بعد موافقته...وفي جنح الليل.

-أيوجد رجل في الدنيا يطلب مال زوجته لبناء بيت؟؟؟

-يطلب المال من زوجته وهو متأكد أنها تأتي بالمال من مصدر حلال، هل أقول لك أن تعملي في أشياء محرمة، نتعاون ونبني بيتنا.

كانت حفيظة ماكرة كالثعلب، تراقب نسيم مختبئة في منحنى الشارع، وتلمحه يطرق على نافذة سماح بالخيزرانة التي في يده..... تقف حفيظة بين البنات اللواتي يعملن عندها وفي يديها كوب من الشاي تشربه بمزاج جيد.

-أنت يا سيدة حفيظة لا أراك حزينة على زوج ابنتك.

.رقصت برقة وفرح وقالت في نبرة واثقة:

-ألف عشيقة ولا واحدة لصيقة.

ضحكت البنات اللاتي يطرزن عندها، وقالت سنية:

-حرام أن يعرف الرجل نساء كثيرة من أجل اللهو سراً، من المفروض أن يعلن زواجه للناس ليكون حلالاً.

فقالت حفيظة:

-أهلها يعلمون بزواجها والجيران والأحبة والبلدة كلها، لكن الحرام أن أعرف رجالاً تنكر زواجها العرفي أمام من يسألهم، وهذا حرام.

***

(٢٣)

خدعة

...شخص من أعوان مطر يرتدي ملابس مهلهلة وهو متوسط القامة، حاد الملامح، وقد نقشت فيها علامات المكر والدهاء والخديعة دق باب بيت ثريا برفق، ثم قال لها بصوت منخفض:

- يريد(نسيم بيك)لقاءك عند المحطة فهو مسافر ويريد أن يأخذك معه أنت وابنك، أسرعي فهو يخشى أن تعلم السيدة أشرقت.

قالت ثريا لورد التي كانت نائمة على الكنبة بصوت خافت خشية أن يسمع من في الباب:

-استيقظي، شخص في الباب يريدني أن أخرج للقاء نسيم بيك في هذا الوقت.

قالت ورد في رعب وفزع:

-افرضي أنه مجرم؟

قالت ثريا:

-ما عفريت إلا أفكارك.

-الأضمن ألا تستعجلي، قد يكون من أعوان المجرم زعابيب فيخطفك أنت وابنك.

-أو يخطف ابني ويضغط على لأغير شهادتي وأقول أن إصابة نسيم بيك من رجاله مثلاً.

قالت ورد:

-خليك مع الله، من الممكن أن يكون مقلباً من أشرقت أو أمها حين شعرت بشيء بينك وبين نسيم.

فقالت ثريا بحذر:

-تعمل لي فضيحة، حتى يهجرني نسيم.

فقالت ورد:

-والبيت وسط البيوت، وأنت أغلقت أبوابه ونوافذه، بأكثر من قفل وقفل.

فقالت ثريا بصوت منخفض:

-الطارق مشى.

قالت ورد بحذر وهي تمسك يديها:

-لا تقتربي من الباب أوتفتحيه، يلف ويأتي من أي ناحية خليك في داخل بيتك.

قالت ثريا:

-إن اقترب أكثر أقف وراء النافذة، وأقول حرامي وأصرخ حتى

يجتمع الناس.

قالت ورد:

-تمام وأنا معك

فقالت ثريا:

-ابقي معي دائماً، وعندما يأتي نسيم تنامين في غرفة أخرى بجانب ابني.

***

(٢٤)

حكايه مضيفة

...ليلاً في ركن من أركان بيت (نسيم بيك) توجد المضيفة المستقلة عن البيت، وإن كانت ملتصقة به، والمضيفة عامرة بوجهاء البلدة، والمشروبات والقهوة والشاي وإليانسون، والجوزة، وأمامها عريشة من الخشب التي تم تجميلها بالزهور واللبلاب حولها، والنسمات معبأة بالبخور وعبير الزهور، والمشروبات بين ضجر من بعض الأحاديث وبين نفحات من السرور، ويأتي الناس لعرض مشكلاتهم وفض خصوماتهم عند نسيم بيك، وجاءت(ورد) أخت ثريا إلى نسيم بيك في المضيفة، ليحل لها مشكلتها، وفي يديها سلة من الخوص تبيع فيه بعضاً من حلوى الأطفال وغزل البنات، وهي متوسطة الطول ممتلئة الجسم قليلاً، ذات وجه أبيض وأنف طويل، وعيون ضيقة، وترتدي ملابس سوداء، دخلت على الرجال بكل ودّ، وألقت التحية، وحدثتهم عن مشكلتها؛ قد تزوج زوجي من امرأة أخرى، وبذلك أعلن وفاته بالنسبة لي، فأريد راتباً يساعدني

عـلى هـذه الحيـاة، ليتـك تكلمـه يـا سـيد نسـيم بيـك، أريـده أن يطلقنـي لأسـتطيع أن أكتـب عليـه راتبـاً.

-إن شـاء الله، سـأكلمه، وأي حاجـة تحتاجينهـا، تذهبـين إلى أم فـارس.

-خيركـم سـابق والحمـد لله، السـيدة أشرقـت تعطينـي السـمك مـن الأرض واللوبيـا الناشـفة والخـضراء والباميـا والملوخيـة، وآخـذ كل سـنه جـوال أرز وشـعير والقمـح واللبـن والخبـز كـمان، ربنـا يبـارك لكـم ويبـارك في ذريتكـم.

-أنا قلت لك كل طلباتك لا تحملي الهم.

لكـن نسـيم بيـك تضايـق مـن السـلة التـي تبيـع فيهـا حلويـات للأطفـال، وكان محرجـاً أمـام الرجـال، وقـد تلـون وجـه مـن غيـظ دفـين يكتمـه في صـدره.

جـاءت السـيدة أشرقـت بعـد أن انصرفـت بقوامهـا الجميـل، تعلـو رأسـها طرحـة زرقـاء بلـون السـماء، وقـد تحلـت بالحـلي والملابـس الفضفاضـة. رائعـة بحسـنها وقوامهـا وعقلهـا واتزانهـا، وقـد تجملـت ببعـض المسـاحيق عـلى وجههـا، وزاد الكحـل لمعـان عينيهـا الواسـعة، فانفعـل نسـيم حـين رآهـا لشـدة غيرتـه عليهـا، ثـم انـصرف مدعيـاً أنـه يريـد الاطمئنـان عـلى جمعـة.

ومشـت السـيدة أشرقـت أمامـه بقوامهـا المياس في أدب واحـترام، لأنهـا تعلـم أن الخـدم حولهـا و العيـون تلاحقهـا في صمـت.

فقال لها:

-حـذار أن تـأتي إلى المضيفـة بعـد ذلـك، يفضحوننـي في المقاهـي والأراضي، ويقولـون زوجـة نسـيم تجالـس الرجـال وتظهـر أمامهـم والهبـاب عـلى وجههـا.

فقالت السيدة أشرقت:

- ملابـسي محتشـمة أكثـر مـن أي سـيدة، كلهـن يرتديـن ملابـس قصـيرة (تحـت الركبـة بقليـل) ويرضعـن أطفالهـن أمـام المـارة، أنـا أخجـل مـن الله مـن أفعالهـم، ومنهـن مـن لا تخـاف الله، لأنهـا لم تعرفـه بعـد، وتمـشي بملابـس تظهـر مفاتـن جسـدها، ألم تخـف أن تمـوت فجـأة، أو تصـاب بمـرض لعـين؟ وأنـا لم أضـع المكيـاج وجمإلى طبيعـي، ألم تـره إلا أمـام الرجـال لغيرتـك عليـه؟

.وجد جمعة أمامه من يقوم بعمل حوافر للحصان.

واتجهـت السـيدة أشرقـت إلى بيتهـا، فجـاء رجـل ضعيـف ذو شـعر مبعثـر، وملابـس مقطعـة، يجـري الرجـال وراءه قائلـين: هـذا الرجـل الـذي يجـري باتجاهـك قـد سرق البـطّ.

فقال الرجل:

- إن كنـت سرقتـه فذلـك لأن أطفإلى يبكـون مـن الجـوع وزوجتـي تـأن مـن الألم وهـي نائمـة في الفـراش، وبحثـت طويـلاً عـن عمـل فلـم أجـد، ولم أسـتطع العمـل في القهـوة أعمـل طيلـة النهـار والليـل، ثـم يقـول لي صاحـب القهـوة: لـك عنـدي تعريفـة، مـاذا أشـتري بهـا؟ وكيـف أعالـج زوجتـي؟ أخذتـه مـن القهوجـي، وعملـت صبيـاً عنـد

نجار فلم يعطني أحد حقي، وكأني لست من بني آدم!!! أنا محتاج للطعام والشراب والعلاج.

.رد عليه من يجرى وراءه:

– مت، ماذا نفعل لك،(كنا خلفناك ونسيناك).

فقال نسيم:

–لا تسرق ولك الحق في العمل في أي مكان، تأتي إلى أو لأي شخص، فسيقف معك ويأتيك بحقك، فليذهب كلّ منكم لحال سبيله، تعال يا عبد الله.

قالوا: يجب أن نأخذه إلى السجن.

فقال نسيم:

– سنتركه هذه المرة، وسأبحث لك عن عمل مناسب، أتستطيع أن تعمل كموظف في المدرسة أو كساعي فراش؟ تعمل وتأخذ راتبك من الحكومة، لو فتحت لك القهوة أخشى أن تأتي الناس لشرب القهوة، وتذهب دون أن تدفع.

.فقال الشباب الذي كان يجري وراء الحرامي

–سنتركه لخاطرك، والله يسامحه ويسامحنا جميعاً.

ثم مضى مع أحد الرجال ، وأخذه قلبه وقدماه عند سماح ليسهر عندها.

–تأتي (ورد)أخت ثريا في مشكلة لأحلها وفي يديها سلة أمام ضيوفي، إنه منتهى الإحراج.

-من لديه مشكلة يشغل بها فلا يرى أمامه، إني أعذرها.

...ورد أخت ثريا لكنها لاتشبهها أبداً، تجلس معها في غرفة الضيوف، تقعد كل منهما على الكنبة بجوار الأخرى وفي يد كل منهما قدح من الشاي.

- نسيم تزوج؟ هل ستشهدين ضد نسيم بيك يا ثريا؟

-أشهد زوراً وأدخل النار؟

- جال الموضوع في خاطري فقلت أحذرك من عذاب الله الشديد.

...أتى ساعي البريد بملابسه الهادئة يحمل حقيبته بجواب إلى نسيم بيك من فتاه راقصة يونانية في(.شبرا.)قرأ الرسالة، ثم حرقها بعود ثقاب، ورسالة أخرى أخذ يفكر ملياً بفحواها، وقال لفتح الله ألقي بها في الحمام وأغدق عليها ماء كثيراً، وبدا على وجه نسيم علامات القلق والاضطراب، وأسرع بالاتصال ولكن ذراعه المصابة لم تساعده، فأسرع فتح الله ليحمل له الهاتف.

-لالا أتصل في وقت آخر، فالموظف عصمت في السنترال يتجسس على المكالمات ويملأ بها البلد.

...بعد أن تحسنت صحة نسيم بيك سافر ليرى سيدة تقيم في (حي شبرا)، وكان يستقل سيارته، صعد إلى شقة السيدة عن طريق المصعد الكهربائي، وارتدى بدلة رمادية أحدث موديل لسنة ١٩٥٦، ودق جرس الباب ففتحت الباب فتاة أرمنية تتحدث العربية بلهجة مصريه،-مساء الخير أنا...

فقالت بصوت طلق مليء بالمرح:

-تفضل(نسيم بيك)لقد رأيت صور والدك في ألبوم الذكريات عند أمي، إنه يشبهك تماماً.

-أبلغي السيدة سيفاك بقدومي، وقبل أن يكمل حديثه، أشار للبواب أن يضع على المنضدة ما أتى به من أكياس؛ فواكه وحلويات.

فقال البواب له:

-هل تحتاجون أي خدمة؟

فقال نسيم:

-عندما أحتاجك أطلبك.

قالت له في جدية:

-ماما في انتظارك

أنت ابنتها (لوسيد) ملامحك مصرية وصوتك وشعرك الأسود، صحيح أن بشرتك بيضاء لكن عينيك سوداء مثل والدتك، وملابسك محترمة.

-والدي مصري،إليس والدك؟

-الحمد لله

-على الميراث أم على شيء آخر؟

- الحمد لله على كل شيء في السراء والضراء.

– أرسلت والدتي لك لأنها مريضة، وعندها بعض المشكلات. تفضل(نسيم بيك) ماما.

–أهلاً يا بني، اعذرني في إرسإلى لك، لكن الدنيا ضاقت في عيني، وذكرتني بوالدك ابنتي(.لوسيد.)

–خيراً،أتحتاجين لمصاريف العلاج؟ من عيني، الخير كله من عند الله.

–ليس هذا فقط، نود أن نترك شقة حي شبرا، فأصحابها يريدون تنكيس العمارة وبيعها، فقلت لن يقف بجانبي إلا أنت، وابنتي طلقها زوجها وسافر إلى إليونان، كما أخذ ابنها وهرب، لأنها رفضت السفر معه.

فقال نسيم:

–هل تعملين يا(.لوسيد.)؟

–نعم سأعمل قريباً عارضة أزياء، ومن الممكن أن أجد شقة في أحسن الأماكن لكن الثمن معروف، وأنا حرة لا أريد أن يستغلني أحد تحت أي ظرف من الظروف.

قالت الوالدة:

– تؤجر لنا شقة ليست تمليك، وتساعدني في العلاج.

– أرادت والدتي رؤية والدك في صورتك، ولقد تزوجها سراً، واشتاقت لذكرياتها معه.

.ابتسمت الوالدة في خجل، ثم قالت:

-كما يقول الناس من ينجب لا يموت.

قال نسيم بابتسامة مشرقة:

-وأنت تأمرين.

قالت الابنه:-أستأذن بالخروج عندي بعض التدريبات من أجل المحافظة على رشاقتي.

قال نسيم:

-انتظري سآخذك في طريقي.

***

(٢٥)

ليل طويل

عنـد الغـروب والسـماء تمطـر مطـراً خفيفـاً، وقـد انفـض جمعـة مـن حلـب الأبقـار وقـد أخـذت منـه السـيدة هنيـة الأواني الفخاريـة الممتلئـة باللبـن، وهـي عـلى بـاب الغرفـة المجـاورة لغرفتـه، لتقـوم بعمـل القشـدة والجبـن، وقالـت لـه: هـات هـذا الإنـاء المملـوء باللبـن قبـل أن تقـترب منـه قطـة أو كلـب.

فقال جمعة بقوة:

-أنـت تعلمـين أن هـذا نصيـب كل يـوم، أمـرني نسـيم بيـك بأخـذ مـا يكفـي عشـائي كل يـوم.

قالت هنية:

- أنـت تأخـذ كل يـوم ولا تسـتكفي وتقـول شـكراً ،ولقـد أرسـلت لـك السـيدة أشرقـت طعـام الغـداء أنـت ونعيمـة وأكلـت بطـاً وملوخيـة وبطاطس

فقال جمعة:

-كان ذلك غداء، هل أنام من غير عشاء كرامة لك؟

وذهب إلى غرفة الفرن المجاورة لغرفة عمل الجبن والقشده، وبدأ جمعة في إشعال النار في بعض من الحطب في وعاء قديم، وحين هدأت النار أخذ الإناء إلى غرفته بعد أن أمسكه بقماشة، وتأخذ هنية السيدة المسنة إناء كبيراً من اللبن من على النار وتضع الجبن على حصيرة من أعواد الخشب الرقيق، ثم تقوم بثنيها وتعليقها على مسمار في الحائط حتى تصفيه من الماء؟ وصبت الإناء الآخر الذي كان على الكانون الذي ملئ بلبن شبه متجمد جراء وضع أربع ملاعق من الخل فيه وذرة من الملح، على قطعة من الشاش النظيفة الموضوعة على مصفاة كبيرة، ووضعت المصفاة على إناء فارغ حتى تصفيه من الماء، وقد عقدت القماش على شكل صره وعلقتها. فقال لهنية وهو يمر أمام غرفتها:

-كلي على راحتك من القشدة، سيراك الله ويحاسبك وإن قفلت باب الغرفة على نفسك فما وضع بين يديك أمانة في عنقك.

قالت هنية بغضب:

- أتشك فيَّ يا جمعة، أنا أصلي لله الفرض في ميعاده، لا إني غاضبة منك .

فقال جمعة:

-أنبهك الشيطان شاطر ويضحك عليك.

فقالت هنية:

-الشيطان يغلب تارك الصلاة، اغرب عن وجهي، ربنا يسعد أيامك، أغلق الباب فالبرد يأكل عظامي، كم كنت - في عز البرد- أمشي حافية وأستحم بماء مثلج بعد انتهائي من عمل البيت!!! دنيا لا يبقى أحد على حاله.

***

(٢٦)

براءة مشتتة

تسهر السيدة(أشرقت)في بيتها في كامل أناقتها وصحتها، لكنها تبكي إهمال زوجها لها.

-أنت في هذا الوقت يا نسيم تسهر عند سماح، تداعبها وتكلمها، وأنا أقضي الليإلى وحيدة في حيرة، والأحزان تكسو روحي.

...تصحو ابنتها سميرة من النوم، وتعلم سبب بكاء أمها بقلب مكسور حزين، وبينما كانت تبكي بينها وبين نفسها وتنظر إلى المذياع نظرة ساهمة ،تتسلل سميرة وتخرج من البيت في ظلام الليل الرهيب، لا تكاد ترى نفسك إلا كشبح في ضوء يخرج من خرم باب خشبي لمنزل ضعيف، والرياح شديدة، والأرض مبللة من آثار مطر خفيف، ترتدي ثوباً من قماش التيل وردي اللون و حذاء أحمر.

تقابلها مجموعة من الكلاب، فلا تجد شيئاً لتختبئ فيه إلا أكوام حطب أمام بيت مبني من الطوب اللبن، اختبأت وراء كومة الحطب، حتى تمر الكلاب، فمروا جميعهم إلا واحداً اتخذ من كومة الحطب ساتراً ووقف وتبول ثم مضى، فتقول في نفسها بتصميم وإرادة على الرغم من خوفها الذي كادت أن تبدي به.

-لابد أن تعود لأمي يا أبي.

نظرت حولها في الشوارع الفارغة من أصوات البشر، فشعرت بالخوف فأخذت تتلفت حولها، ثم قررت الذهاب لوالدها، الشوارع مظلمة، كما وقفت مجموعة من القطط فخيل إليها أنهم شياطين تتشاجر مع بعضها، ترتجف سميرة بشدة فتتذكر كلام والدتها حين كانت تخبرها بأنها حين تشعر بالخوف تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .بسم الله الرحمن الرحيم.

و فجأة وجدت عمالاً في طريقهم إلى مصنع الغزل والنسيج، وفي يد أحدهم كشاف نور، فشعرت بالأمان لوجودهم، على الرغم من أنها لا تعرفهم، لكنها الكبار أخافتهم فقالوا بصوت واحد:

-بسم الله الرحمن الرحيم

.وقال بعضهم بفزع:

-الشارع مسكون لماذا جئنا من هنا؟

.و تجرأ آخر قائلاً :

-إلى أين أنت متجهة يا بنتي؟

قالت سميرة بخوف وفزع:

-أنا في طريقي إلى والدي نسيم.

-لا عفريت إلا ابن آدم، يابن العفريت، الوقت متأخر.

.وأشار بعضهم إلى بيت سماح، قال رجل في الخمسين من عمره وقد انتشر الشيب في رأسه:

-والدك في هذا البيت، في أول الشارع الذي خلفك، يعني أنك مررت أمام البيت.

-لا تعلم مكانه وتبحث عنه في وقت متأخر من الليل، اذهبي إلى بيتك، تعالي وأنا آخذك إلى والدك.

-لا أنت حرامي ستسرقني، وأبي ليس هنا، هذا بيت للطيور،

وانفض الشارع من الناس فجأة عند المنحنى ليأخذوا اتجاهاً آخر، ومشت البنت في طريقها وحدها على ضوء القمر، فسمعت صوت شاب يسهر ليدرس على ضوء مصباح الكيروسين الذي يطل شعاعه من فتحات النافذة الخشبية القديمة المثقوبة.

وتتلفت يميناً وشمالاً في فزع وهي ترتجف، وتهتز قدميها ويديها من البرد والرعب، وتصتك أسنانها، وبدأت تعطس وانتابها سعال شديد، ثم وجدت يد كبيرة تمتد وترفعها للأعلى، ففزعت وصرخت، وفي إليد مشعل وقد أحدث المشعل ظلاً طويلاً، والريح تهب فتكاد تطفئه، وهي ترتعش مثل عصفور هزيل أصابه مطر الشتاء فوجدت، فتح الله، يقول لها:

- سآخذك إلى البيت، لا تخافي.

-أريد أن أذهب إلى بيتنا و أبي معي.

فقال فتح الله:

-حرام عليك طفلة ذات الأربع سنوات تخرج في منتصف الليل وحدها، أنا أخاف على نفسي في هذا الوقت من الليل، أمك تبكي قلقاً عليك، أتخرجين في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ستضربك في الصباح على خروجك من البيت.

***

(٢٧)

نهاية حب

...كان نسيم في منزله متجهاً ناحيه السرير ،وقد خلع قميصه الأبيض وبنطاله الأسود، وارتدى بيجامته الحريرية، ويقول في سرور دون تفكير:

- سأذهب إلى دمنهور في الصباح، حضري نفسك سآخذك معي غداً لأشتري لك ذهباً، وأشياء للأولاد.

مررت السيدة أشرقت يدها على كتفه، ثم وضعت رأسها على كتفه بحب ورضى ثم قالت:

-عندي ذهب كثير، الأهم أن تكون قريباً مني، ولا تبتعد عني، أشعر بالأمان والثقة عندما أوقن أنك لن تعرف امرأة أخرى بعد اليوم.

أجاب نسيم وهو يضع يده على كتفها بحب، وتبادلا النظرات:

-اطمئني إنك في القلب، وسأشتري لك الذهب بعد بيع القطن كل سنة، ومال بيع القطن عندك، فأنت تعرفين مكانه، خذيه

واشتري كل ما تحتاجينه، وسنشتري الذهب لك ولسميرة والملابس للكل وللفلاحين والضعفاء.

-أطال الله عمرك، وجودك عندي بالدنيا، تمر الأوقات من دونك موحشة مثل بلدة أصابتها السيول فضاعت أنوارها، وهجرها سكانها.

.ابتسم ابتسامة مضيئة،لا تقلقي أنا معك دائماً، متعلق بالبيت وأنا بعيد عنه، أنت وأبنائي مجدي وحياتي وعمري ومكانتي بين الناس، ولقد قلت لك ذلك كثيراً.

وكانت أشرقت تقف أمامه رائعة الجمال، وتقترب لتأخذ منه الجاكيت الذي كان يرتديه في حب، وكان وجهها ينطق بالعشق، فقالت لنسيم بيك:

-ألم تخشَ وأنت عند أي امرأة أن تقتلك وتلقي بك بعيداً، أو أن تكون مريضة وتأخذ منها الأوبئة والأمراض بدلاً من أن تحقق حلمك بالفوز بحسنها.

.قال نسيم في حب وإصرار:

- لقد تبت عن هذه المهازل، و سنذهب هذا العام إلى الحج سوية، وسترعى أمك وهنية الأولاد في غيابنا.

قالت أشرقت فرحة:

-إن شاء الله وسيتقبل الله منّا.

***

(٢٨)

الدوار

...جمعة وهو في طريقه إلى الدوار قرب الفجر، ونعيمة تملأ الماء في إناء تحمله على رأسها، أخبرها أنه يريد السفر والإقامة في بلدته، ونعيمة تبكي وترفض ذلك.

-أنا هنا وسط أناس أعرفهم وأعرف عاداتهم.

قال جمعة:

-لا تخافي أنت معي في بلدي التي هي كل حياتي، ووالدتي طيبة وتحبك.

فقالت نعيمة:

-لا أستطيع أن أتخيل الناس في أي مكان، أفكارهم خبيثة، قتل ونهب واغتصاب، ولهم أسنان طويلة تمزق الأبرياء، ومخالب وحوش ولسان تنين.

فقال جمعة:

- يا نعيمة ستكونين معي وستشعرين بالأمان، سفري أكيد لابد منه أريد أن أعيش وسط أهلي، وأحدد هدفي وموقعي في الحياة، وأسعى لتحقيق أحلامي، أنا هنا أشعر بالوحدة والحرمان والضياع.

قالت نعيمة:

-لا يا جمعة انسَ لن أعيش بعيداً عن بلدي، لقد شعرت أنك شيء غال عندما عاشرتك، وعملك عند نسيم بيك لا يناسبك، لقد تعلمت كيف تكيف نفسك على الحياة هنا لظروفك.

تكنس نعيمة أما بيت نسيم بيك بمقشة بلح بعد أن أخذ البلح منها، وجفت، وتنادي لجمعة وتسأله لماذا تخرج بالمواشي؟

-من أجل أن تشرب من البحر، ذلك أحسن من جلب الماء لهم.

قالت نعيمة:

-وما شأني أنا بالمواشي، على أن أجلب ماء للشرب، وقريباً جداً سيدخل الماء البيت بالمواسير تحت الأرض، وأرتاح من هذا العمل، فالعمل كثير، وأكره منظر روث البهائم أمام البيت، أكرهه من كل قلبي .

قال جمعة:

-خذي الأمور براحة وبمزاج فالدنيا لن تطير.

قالت نعيمة:

-قل لي سنعيش في البندر، في شوارع مرصوفة، ينزل المطر عليها فيغسلها، لكن في الريف نتعذب من الوحل.

***

(٢٩)

الحب والدموع

في الصباح تتعالي أصوات بائعي الخضار على عربات كارو يجرها حمار، ونساء تتجه إلى العمل في الحقول ،وأطفال مدللة تلعب وتصرخ حين يضرب الطفل الوقح طفل آخر هادئ، وشحاذ ينادي بصوت يمزق القلوب يستجلب عطف الناس ليعطوه مما أعطاهم الله من مال أو خبز أو مكيال أرز، ويهرول منه الأطفال متجهين إلى بيوتهم خشية أن يسرقهم.

...تقوم سماح بكنس وتنظيف البيت، وتشعر بانزعاج لا تعلم له مسوغاً، وبينما هي منهمكة في عملها، تسمع الناس تجري، ثم تسمعهم يقولون (نسيم بيك قد مات مات فجأة مات فجأة)، ومنهم من يقول لم يأخذ معه من العز والغنى إلا عمله الذي عمله لوجه الله، وتقول سيدة أخرى: ليس معه إلا صلاته، وإلا سيبدأ عذابه في القبر من اليوم حتى يوم القيامة،ملائكة العذاب تستلمه لا نسيم بيك ولا باشا، المهم عبادته لربنا، هل قبلها ربنا؟

...جـرت سـماح مثـل المجنونـة إلى بيـت نسـيم، فـرأت الجميـع يبكـي، حتـى فـارس المدلـل.

قالت سماح بفزع ونفس مضطربة:

-من مات من؟

قالت سميرة وهي تبكي:

-(امشي من هنا يا ست أنت)

لم تهتـم سـماح لـكلام سـميرة، ودخلـت المنـزل أمـام النـاس، وهـي لا تـرى أمامهـا مـن شـدة الفـزع، تريـد أن تـرى مـن تحـب، فوجدتـه ممـدداً عـلى السرير مغطى ببطانيـة ، ولا يملـك مـن الدنيـا شـيئاً، وليـس معـه إلا عملـه، صرخـت وجـرت عليـه تريـد أن تـراه، وتقبلـه وتضمـه، فمنعتهـا زوجتـه وهنيـة، وجذبتهـا والـدة أشرقـت السـيدة حفيظـة إلى خـارج الغرفـة بقـوة.

وقالت بتمكن:

-زوجتـه أشرقـت ابنتـي هـي الوحيـدة التـي مـن حقهـا أن تدخـل عـلى نسـيم زوجهـا غرفتـه.

..جلسـت سـماح عـلى الأرض تبكـي وهـي لا تـدري إن كانـت واقفـة أو جالسـة ، أهـو حلـم أم حقيقـة؟ لم تسـمع كلام والـدة أشرقـت مـن الهـم والغـم.

...وأشرقت تبكي وتقول:

-(أعمل إيه من بعدك يا غإلى يا أبو عيإلى).

تقول نعيمة:

-لا تقولي على سيدى كلاماً مراً أبداً، البيك ترك لك الأرض، فهي ملك لك، وليس لأحد شبر فيها، إلا أنت وصبيانك الأربعة وابنتك سميرة.

.قالت ثريا وهي تجلس عند قدميها على الأرض:

-بيتك الكبير تغلقي بابه عليك، وليس لأحد شيء عندك.

وتستطيعين أن تطردي أي شخص تكرهين وجوده هنا، إشارة منك تكفي لنطرد عدوك ونرميه في الشارع.

والعزول مهما يقعد لما يشبع يأخذ جزء من الجدران ويخرج من هنا، أغسل لك البيت بالماء والمسحوق والمطهرات كلها،صبرك اليوم.

قالت حفيظة:

-طيلة عمرك أنت في بيتك وهو عند من يعشقها كأنه جالس على القهوة، كأنه سهران يتسلى بالقليل من اللب ثم يبصق قشرهم على الأرض في القهوة. وبعد الليل نهار.

..وبينما سماح تبكي، وقعت عيناها على حذاء نسيم أمام السرير، فقامت وأخذت الحذاء وقبلته وضمته إلى صدرها في حب، والناس في العزاء ينظرون إليها بحزن وأسف.

وفي قلب سماح وصدرها وأحشائها نار تشتعل في صمت،

فليس لها حق في أن تعلن العويل أو الحداد عليه.

وكأنها وضعت في بركان من نار، أو في أعاصير تجلب عليها بحار المرار، ماذا حدث لسماح؟ إنه الطّوفان المُفاجئ دون سابق إنذار، أمطار من المرار وانهيار الأحلام ،ووجوه تكشف على حقيقتها ،خرجت سماح وهي تنظر باتجاه غرفة نسيم ، لم يناديها، لم يطيب خاطرها، لم يرد على همسات عينيها المتوجعة.

ثم قالت في حرقة:

-مع نور الصباح انطلقت الروح بكل ارتياح لله الغفور الفتاح،إلى عالم أجمل من زقزقة طيور الصباح، إلى عالم أجمل من إشراقة شمس الصباح، ومن نور الشمس حين يتلألأ على مسطحات البحار وأعإلى الأشجار، إلى عالم أجمل من عبير الورود في البساتين، وروائح السنابل الخضراء والزروع والرياحين، إلى عالم أجمل من ابتسامة الطفل الرضيع،

عالم ترى فيه العين مالا يراه الإنسان الحي في الدنيا، ماعند ملوك الدنيا من جاه وثراء لا يقدر بحجم ذرة من الجنة التي صنعها الله وليس الإنسان، الدنيا ستفنى مهما طال المطال في أي ثانية، ولكل إنسان عمر محدد، ولكل كائن نهاية مهما طال العمر أو قصر،الآن رأت العين الدنيا والعوالم والوجود والكون، (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد.)سورة. ق،ورأت مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، عيناك رأت السموات وجمالها، رأت الجنة وهي أجمل من كل الاختراعات والابتكارات والاكتشافات والتطوير والتحديث والبناء والتشييد، والزخارف والتحف في الدنيا.

مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

وطارت روحك بثوب أبيض جميل كجمال شباب العمر الجذاب، وأجنحه تطير بها إلى جنة الرحمن ،يا مهجة القلب والروح يا جميل الفكر والقلب، إن قالوا عنك الملائكة والإنس والجن يقولون في صلاة وتسبيح لآخر لحظة من العمر.

فلقد سمعت الملائكة لتسبيحك وصلاتك.

لم تشارك في النميمة مع مخلوق.

لا غمزة ولا لمزة ولا ضياع لوقت دون تسبيح.

...وبعد أن أوى المعزون إلى مساكنهم، ولم يوجد عند هنية إلا أسرتها وأمها وبعض من أهلها، يلبسون الأسود وينام بعضهم في الصالة على سجادة على الأرض، وينام البعض الآخر على الأسرة، أخذت أشرقت ابنتها سميرة إلى الحمام ، فسميرة فزعة خائفة، وثريا ونعيمة تجلسان في أرض المطبخ ،وثريا تبكي بكاء حاراً يذيب ثلج الجبال،فسمعتها (السيدة أشرقت)ذرفت الدموع لبكاء ثريا، ثم سمعت نعيمة تقول لها باستغراب:

-أكنت تحبين سيدى (نسيم)كل هذا الحب الكبير.

قالت ثريا بغضب بعد هدوئها من البكاء وقد احمر أنفها من البكاء والدموع لا تغادر وجنتيها:

-نسيم عمري كله، لقد كان زوجي في يوم من الأيام، لكن الحرباء سماح خطفته مني.

-و أنت أخذتي السيد نسيم من أشرقت، وأنت جريئة بحق، أكنت تقولين له وأنت سهرانة معه (سيد نسيم)، أم كنت تقولين نسيم دون ألقاب؟

لقد أخذته في الحلال، كان من الممكن أن أعيش من أي عمل، لكني فضلت أن أكون بالقرب منه هنا، حتى أكحل عيني برؤيته كل يوم.

-حسابك عند ربنا كبير، فكثيراً ما كنت تضعين روث البهائم والحمير في غرفة نوم السيد نسيم، وهو يكره هذه الرائحة ، (يا بختك) أنت كلك وقحة، وأنانية.

-شيطان تملكني، والغيرة مرة، ربنا يغفر لي، نسيم سحرني بكلامه وهيئته و أخلاقه الجميلة، وجريء وجسور في الحق.

تمددت ثريا من التعب على الأرض وتوسدت ذراعيها.

فقالت نعيمة:

-(يا خرابي على جسمك يا بنت يا ثريا جسمك يهبل لو كنت جميلة زيك، كنت اتهنيت)

-ربنا يكفيك شر النار الموجودة في قلبي، إنها ترعى في قلبي مثل النار التي ترعى في قش الصيفية عند الظهر.

..كل هذا وهنية تضرب كفاً بكف، هماً وذهولاً من هول ما تسمع، وتقول في نفسها:

-يا قهر يا قهر

.تقول نعيمة لثريا:

-(قلت كلام جامد عن سماح النهاردة أمام الناس)

فقالت ثريا بحزن:

-أقول ما صار إليه حإلى، لا حال سماح، لقد أحببت نسيم حباً كبيراً، وفي يدي أشرقت خير نسيم كله، وأنا وسماح أخذنا الهم، قالت نعيمة:

-أنت تحبين (نسيم بيك) على الرغم من زواجه من سماح؟

قالت ثريا بحزن:

-انطفأت فرحة حياتي حين تزوج من سماح، وانتهت حياتي القادمة مع موت نسيم، سأعيش للذكريات المؤلمة، لقد كان يعرف الستات في الحلال. (فكرك أنا بعمل حاجة حرام؟)

فقالت نعيمة:

-ستتزوجين من آخر بعد عدة أيام.

وفجأة دخلت عليهم (أشرقت)بغيظ وجبروت وهم وجذبت ثريا من شعرها،

-(لا دخان من غير نار، ياما قالوا لي عنك يا ثريا إنك حية يا مجرمة)

فقالت ثريا

-أنا مخنوقة منك يا أشرقت، أطلع روحك في يديه يا ست أنت، سنين وأنا أروض نفسي أن لا تعضي الأفعى وتفرغ سمها في

حياتي وأنا أقيم بين أنيابها، كنت بتحمل لخاطر نسيم ونسيم راح وفات لك الجمل بما حمل فات لك خيره كله ترعى فيه وحدك، يا أم بوز نحس.

.وتشاجرت النسوة وصرخت أشرقت، فجاءت أمها وأقاربها، وانهالوا ضرباً على البنات.

قالت أشرقت باستغراب:

-زوجي هو كل شيء في حياتي وليس ما أملكه منه.

ثم أردفت:

-يا أمي كانت ثريا في بيتي وتخونني وتدس الروائح الكريهة في غرفة نومي.

جذبت (أشرقت) ثريا من شعرها ، فابتعدت عنها، جذبتها ثانية، فسقطت ثريا عند باب المطبخ وصدمت رأسها بحافة الباب وسال دمها.

قالت حفيظة فزعة:

-أتكون قد ماتت يا أشرقت، ستدخلين السجن، يا الله ألطف بنا.

***

تمَّت

هانم داود